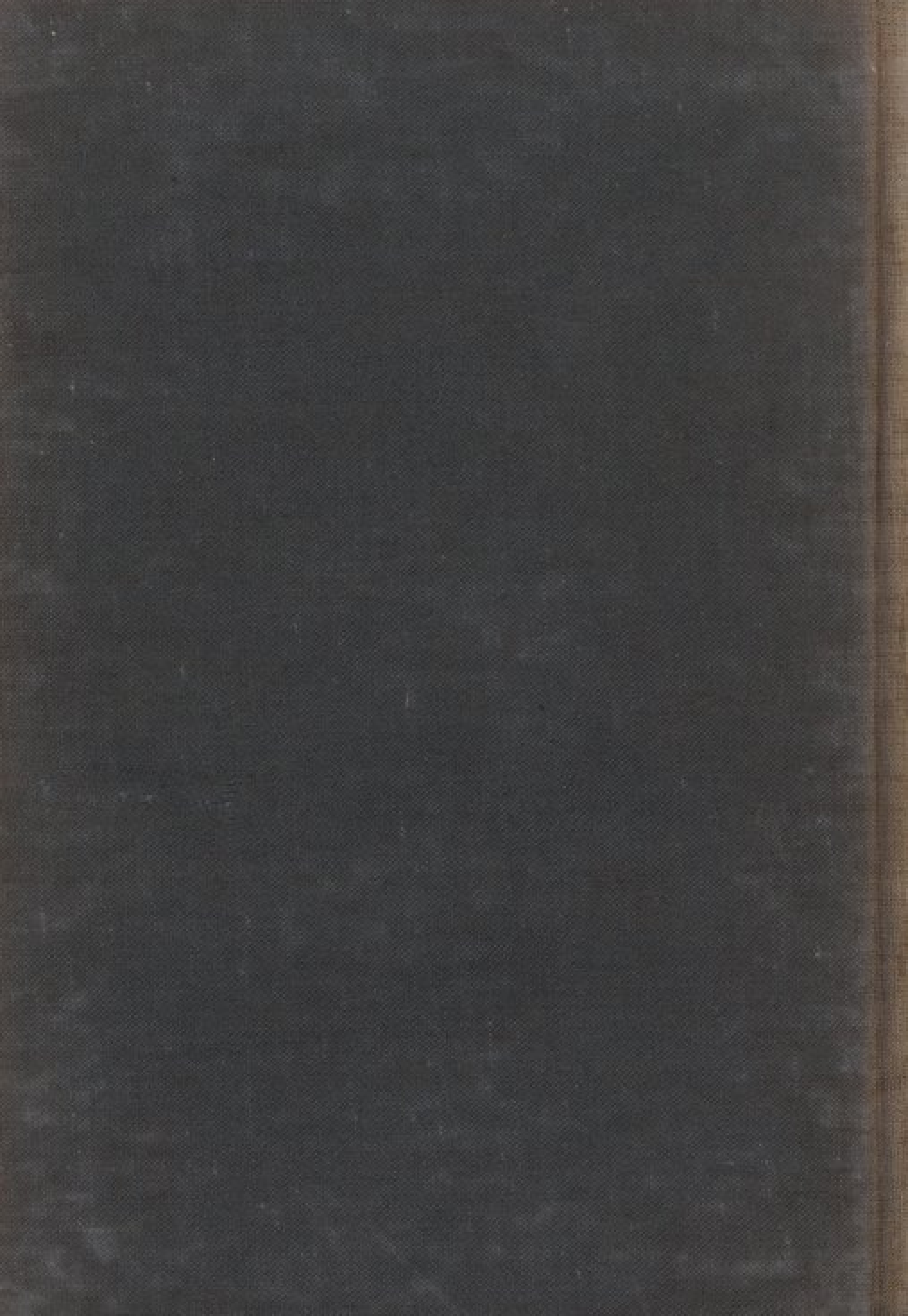


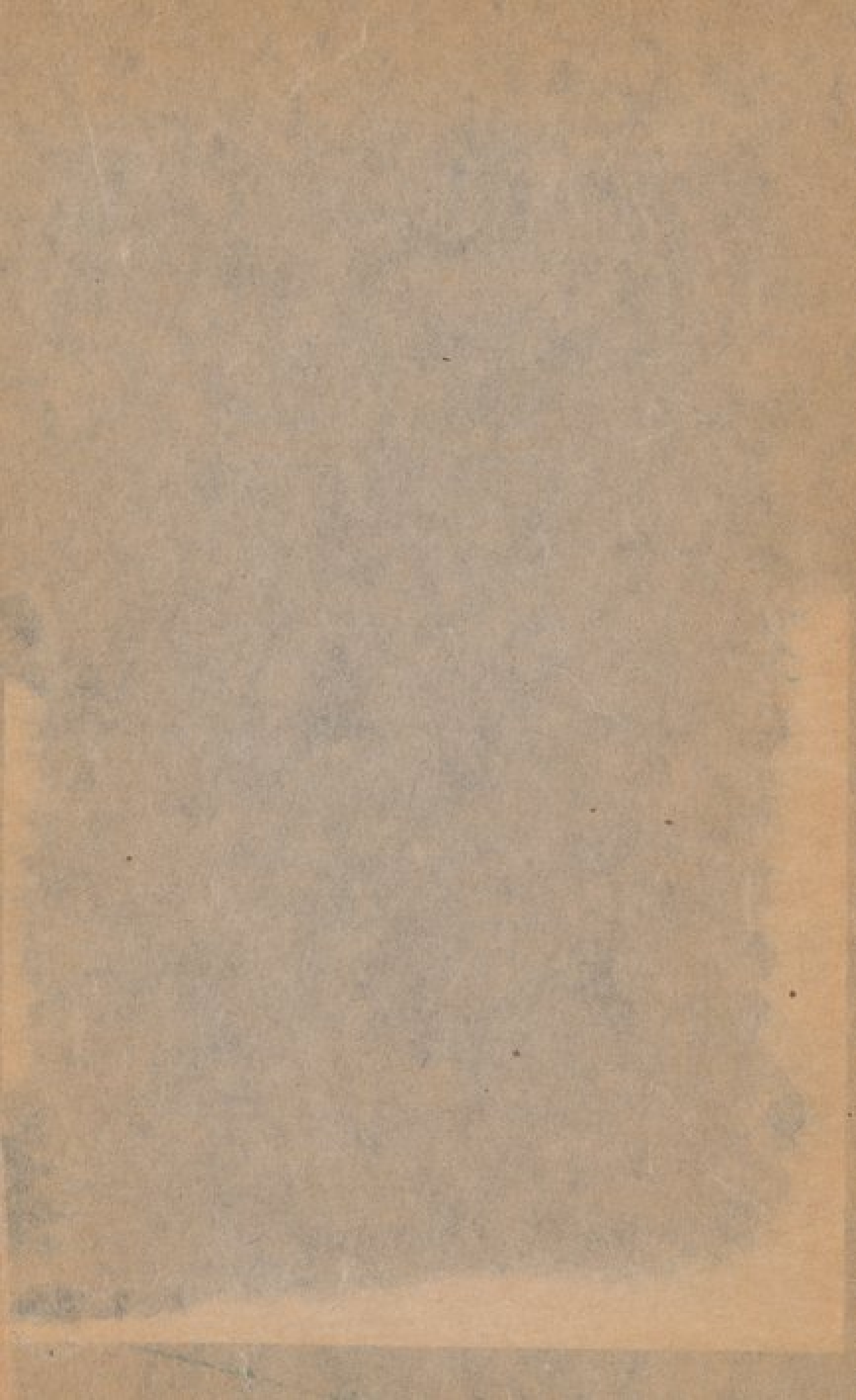


قصة الألفباء

تأليف

جورج شهلا — [illegible]

شفيق جحا — [illegible]



امس واليوم

١

قصة الألفباء

تأليف

جورج شهلا
أحد أساتذة التربية في الجامعة الأميركية في بيروت

شفيق جحا
أحد أساتذة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت

سلسلة أمس واليوم
١٩٤٨

مطبعة المرسلين اللبنانيين

جونيه - لبنان

٢٠-٤٨-١-١

جدول المحتويات

صفحة

سلسلة

امس واليوم

رقم

للمخابرة بشأن سلسلة « امس واليوم » اكتبوا الى هذا العنوان :

الاستاذ شفيق جحا

الجامعة الاميركية

بيروت – لبنان

مقدمة

بقلم

الدكتور نبيه امين فارس

رئيس دائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في بيروت

في الثقافة العربية اليوم نقص ظاهر يتطلب عناية مستعجلة اذا كان للعرب ان يستعيدوا مركزهم الثقافي ويسيروا ثانية مرفوعي الرأس في مهرجان الامم المتمدنة . ذلك النقص هو قلة الكتب التي تصلح لمطالعة الطلاب والمثقفين لا بل فقدانها . فلا يخرج الطالب من مدرسة أو كلية أو جامعة ويبتعد عن خزانة الكتب الى قريته النائية حتى يجد نفسه في وسط مجاعة أدبية وعطش روحي . فالكتب المتداولة

قليلة والصالح منها معدوم . فينزل التاعس الى اقرب حاضرة لعله يجد في اسواقها ومكتباتها ما يسدّ بها حاجته فلا تصل يده الا الى مؤلفات طغت عليها طرق « الاعاشة » فهي خليط من الحنطة والشعير والشعير فيها اكثر . فيضطر الطالب أن يسعى وراء الكتب الاجنبية لانها لسد حاجته اوفى . واذا اتفق أن ظهر كتاب عربيّ قيم لا ينتبه اليه لانه تعود مطالعة الكتب الاجنبية ، فيكسد الكتابُ ويفلس الكاتب مادياً في بادئ الامر وأدبياً في النهاية ، ويكون مصيره عبرة لغيره من الكتاب فينقطعون عن صناعة الادب فيقل الانتاج الادبي الوطني ويزداد رواج الانتاج الاجنبي فتتم الحلقة الخبيثة وتستحكم . وتتجلى هذه الظاهرة في كتب التاريخ خاصة . فقد اقتصرت هذه على الناحيتين السياسية والحربية واهملت النواحي الاخرى من عمرانية واجتماعية وثقافية . ولا تزال العربية تفتقر الى كتب تاريخية تفي الناحية الثقافية حقها من البحث . ولا يزال الطالب مضطراً الى الالتجاء الى اللغات الاجنبية . ولا يتبادرن الى الذهن اني اقول بشرّ الكتب الاجنبية . فالكتب الصالحة في أية لغة كانت تمثل سلافة الروح البشرية . إنما الشر أن تبقى العربية مفتقرة الى ما يسد حاجة ابنائها الفكرية ويزيد حتى تساهم ثانية مع غيرها من اللغات في اذكاء روح العلم والفكر ورفع نبراسها .

ومن دواعي الغبطة أن ينبري الى سد هذه الثلمة زميلاي الاستاذ جورج شهلا والاستاذ شفيق جحا . فقد ادركا بفضل اختباراتهما الواسعة الطويلة حاجة الطالب والمتخرج خاصة والجيل المثقف عامة الى كتب تبحث في تاريخ الحضارة وتعنى بالنواحي الثقافية والعمرانية والاجتماعية . « فسلسلة امس واليوم » تتناول تلك النواحي المهملة المنسية وتؤرخ للحضارة لا للحروب وللعمران لا للسياسة .

وقد توخى المؤلفان المحافظة على وحدة البحث واظهار الخطوات المتتابعة في الموضوع بجلاء، فتناولا في كل كتاب موضوعاً واحداً . وتوخيا ايضاً أن يكشفا عن حقيقة ما برحت مطموسة وهي أن الحضارة نتيجة للتعاون المشترك بين الشعوب منذ اقدم العصور . وأن الحروب المخربة الهدامة ليست في الحقيقة الا ناحية واحدة من التاريخ تمثل الانسان في أبشع صوره . ولما كانت ايام السلم اطول من ايام الحرب كانت علاقات الشعوب في الاولى اثبت أثراً من علاقاتهم في اثناء الثانية ، وكانت ثمار السلم اعظم من ثمار الحرب وأبقى، وما تتطلبه من اهتمامنا اكثر وأحق .

وتتوخى هذه السلسلة — « سلسلة امس واليوم » — أن توجد لدى القارىء رغبة في البحث والاختراع اذ تظهر أن بداءة اكثر الاختراعات جاءت بشكل بسيط ثم تطورت ، وأن معظم المخترعين لم يكونوا

من اكثر الناس علماً ومعرفة بل من أدقهم ملاحظة واعظمهم جلداً على الدرس والبحث والاختبار .

ومن ابرز ميزات هذه السلسلة انها تظهر الدور الذي قام به العرب في تقدم الحضارة العالمية، لا للتبجح بل لبيان حقيقة واحدة : أن العروبة كانت ولا تزال اساساً للتقدم البشري ، وكانت ولا تزال قادرة على خلق جزء من حضارة العالم .

نبيه امين فارس

الفصل الاول

الكتابة التصويرية التشخيصية

هل فكّرت يوماً ، وانت تكتب رسالة او قصة ، كيف توصّل الانسان الى الكتابة ؟ وهل حاولت ان تتصور ما الذي حمله على الكتابة واي نوع منها استعمل في اول أمره ؟

قلّما يفكر احدنا في هذه الامور ، لاننا تعوّدنا ان نكتب وان نقرأ ما يكتب الغير ، دون ان نتنبه الى ان الانسان في اقدم الازمان لم يكن يعرف شيئاً عن الكتابة كما هي الآن .

نُعلِم الاُمّي القراءة ، فيُحلِّل الكلمات التي يقرأها

الى الحروف التي تتركب منها ، ثم يُركِّب الكلمات والجُمَل من هذه الحروف ، ويكاد لا يخطر لنا ببال ان الالفباء من مخترعات الانسان ، وانه مرَّ عليه زمان لم توجد فيه الالفباء على الاطلاق .

في ذلك الزمان البعيد لم يكن لدى الانسان ورق ولا حبر ولا قلم ولا مطبعة ولا آلة كاتبة ولا شيء من ادوات الكتابة . كذلك لم يكن يعيش في المدن والقرى بل في البراري والغابات ، ولا كان يسكن القصور والبيوت بل الكهوف والمغاور .

وكان الانسان آنئذٍ قد تعلَّم المعيشة مع اخيه الانسان لكي يتعاونا على تحصيل القوت واللباس وعلى اتقاء خطر الاعداء من بني جنسه ومن الوحوش الضارية . وكان قد تعلم ايضاً ان يصنع بعض الادوات الصوانية كالفؤوس والسكاكين ، وان يجعل لها مقابض خشبية او عظميّة . ويُسمّي العلماء هذا

العصر بالعصر الحجري القديم .

ولكن ما الذي دفع الانسان الى الكتابة في ذلك العصر ؟

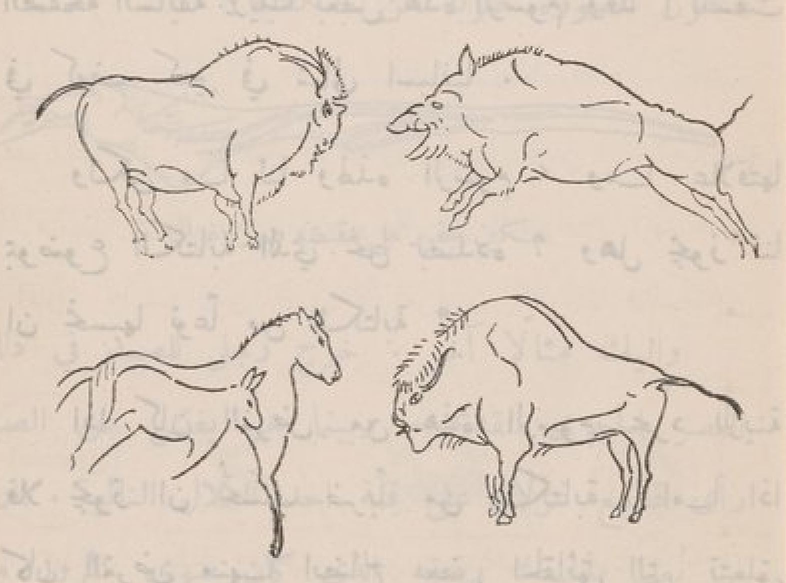
لقد لجأ الانسان الى الكتابة منذ اقدم الازمان سداً لحاجة كان يشعر بها ، والحاجة ام الاختراع . فكانت المرأة اذا اعارت جارتها ثلاثة ارغفة ترسم على حائط خيمتها صورة ارغفة ثلاثة او صورة رغيف واحد الى جانبه ثلاثة خطوط . وكان البائع اذا باع حنطته ديناً يرسم على جدار مخزنه رسماً بسيطاً لمكيال الحنطة ، وخطوطاً للدلالة على عدد المكاييل التي يجب ان يطالب بها غريمه في المستقبل . وكان المحارب اذا اراد تدوين واقعة حرب يرسم الرجال في حالة الدفاع والهجوم وعليهم السلاح وقد سقط بعضهم وقتل بعضهم ، اذا هو انتصر على اعدائه واراد تسجيل مآثره يحفر على نصاب سكينه او مقبض سيفه

خطوطاً تعادل عدد القتلى الذين بطش بهم .

ان اعمال الحفر والتنقيب قد كشفت الغطاء عن آثار الانسان الصيّاد في ذلك العصر المتوغل في القدم . وفي جملة هذه الآثار ، النقوش والرسوم التي اكتُشفت حديثاً على جدران بعض المغاور وسقوفها ، ولاسيما في جنوبي فرنسا وشمالي اسبانيا .

رُوي ان احد شرفاء اسبانيا دخل كهفاً في اراضيه في شمال البلاد ، واخذ ينقّب فيه فعثر على أدوات من الصوان والعظام . وكانت ابنته تلعب في زاوية من زوايا الكهف المظلمة . فحانت منها التفاتة الى السقف . وللحال صرخت بملء صوتها : ثيران ! ثيران ! ثيران ! مشيرةً باصبعها الى السقف فاجفل الوالد أيّما اجفال والتفت الى حيث إشارت ، فراعه ما رأى وتوقف عن التنقيب . رأى صورة صِوار من الجواميس البرية مرسومة على الصخر بالوان

ثابتة لم تقوَ على ازالتها السنون التي لا تقل عن عشرة آلاف سنة مرّت على رسمها في الكهف دون ان تراها عين بشرية حتى قُيِّض لابنة صغيرة ان تراها وتدل اباها عليها .



رسوم اكتشفت على جدران كهف في اسبانيا

ان امثال هذه الرسوم كثيرة . منها ما هو منقوش على جدران الكهوف وسقوفها ، ومنها ما

هو محفور على مقابض السكاكين والحراب وما الى ذلك . ومن الغريب ان بعض هذه الرسوم والنقوش يمثل حيوانات لا وجود لها في هذه الايام لانها قد انقرضت قبل الوف من السنين . والشكل الذي على الصفحة السابقة يُريك بعض هذه الرسوم وقد اكتُشفت في كهف كبير في شمالي اسبانيا .

ولكن ما لنا ولهذه الرسوم ، وما علاقتها بموضوع الكتابة الذي نحن بصدده ؟ وهل يجوز لنا ان نحسبها نوعاً من الكتابة ؟

اذا كان الغرض من هذه الرسوم مجرد الزينة فلا يجوز ان تُحسَب ضرباً من الكتابة . اما اذا كان الغرض منها ايضاح بعض الحقائق التي تتعلق بموسم الصيد ، او تدوين طلاسم سحرية او ادعية الى الآلهة لدفع الاذى عن اهل الكهف وما الى ذلك من الاغراض ، فهي ضرب من الكتابة لا محالة .

انظر الى هذا السكين الذي اكتُشف حديثاً في احدى المغاور القديمة ترَ ان المقبض محفور عليه صورة غزال . لنفرضْ ان صاحب السكين اسمه غزال وقد حفر هذه الصورة للدلالة على ان السكين له . افلا تكون الصورة ضرباً من الكتابة ؟



سكين محفور على مقبضه صورة غزال

واليك مثالاً آخر . خرج رجل للصيد في ذلك العصر الحجري القديم . وبينما هو يفتش عن الصيد رأى قطيع غزلان على قِمَّة احد التلال النائية . فاراد ان يُعلِم بذلك رفيقه الذي كان ينوي المرور من هنالك متوجهاً الى التلّ . ولم يشأ أن يعود اليه ليخبره شفهياً . فأخذ قطعة من لحاء شجرة وحفر عليها بسكينه رسم غزال وتلّ ، وعلّقها على ساق شجرةٍ

قائمة على مفرق الطريق المؤدي الى التل ، حتى اذا وصل رفيقه اليها فهم الغرض من الرسم والتحق بقطيع الغزلان . لا ريب في ان رسوماً كهذه هي ايضاً ضرب من الكتابة .

يذكرنا هذا النوع من الكتابة بالرسوم والرموز التي يستعملها الكشاف اثناء تجواله وسياحاته ، وبالحكايات التصويرية التي يطالعها الاطفال قبل سن الدراسة ، وباللافتات التصويرية الموضوعة في الشوارع ليهتدي بها المارة والسواقون الذين لا يعرفون القراءة والكتابة



بعض اللافتات الموجودة على الطرقات وفي الشوارع

على هذا النمط كانت الكتابة في اول عهدها عند جميع الامم القديمة . اي انهم كانوا يرسمون

افكارهم رسماً حقيقياً ، فيُعبّرون عن الانسان برسم الانسان ، وعن الجبل برسم الجبل وعن الطير برسم الطير . ويُسمَى هذا النوع من الكتابة : الكتابة التصويرية التشخيصية . ومع اننا لا نعرف من هو الذي قاده الفكر ، لاول مرة في تاريخ البشر ، الى تصوير افكاره وتدوين اخباره ورفع ادعيته الى الالهة بواسطة الرسوم والنقوش ، فلا شك في ان الذي فتقت له هذه الحيلة هو من اعظم المخترعين ، لانه وضع لنا الاساس لفن الكتابة الحديثة . ولعل الكتابة التصويرية اختُرِعت في سائر انحاء العالم مراراً لا مرة واحدة . ولعلها اخترعت منذ عشرة آلاف سنة او اكثر .

ومن اطرف الامثلة على الكتابة التصويرية رسالة بعث بها رجل من هنود اميركا في اواخر القرن التاسع عشر الى ولده المغترب ، يطلب اليه العودة الى الوطن . وهذه هي الرسالة .

ترى الى يسار الصورَة كاتب الرسالة واسمه : « الغَيلم يتبع امرأته » ، وقد اتصل رأسه بصورة غيلم يتبع سلحفاة دلالة على اسمه . وترى الكلام بطلب



الكتابة التصويرية التشخيصية عند هنود اميركا

العودة الى الوطن يخرج من فمه في خطوط مصوبة نحو الولد ، واسمه القَزَم . وهذه الدوائر الثلاث

والخمسين المرسومة في الوسط تمثل الريالات الاميركية التي ارسلها الوالد الى ولده سداً لنفقات السفر .

ولا يخفى ان رسالة تصويرية كهذه تسهل قراءتها حتى علينا نحن الذين نجهل لغة الهنود ، لان الصورة لا علاقة لها باللغة الهندية واصواتها .

وخلاصة الكلام ، ان الدور الاول الذي مرت به الكتابة في تطورها هو دور التصوير التشخيصي . في هذا الدور كان الانسان يصور الشيء او الحادث الذي يريد تدوينه ، فينظر القارىء نظرةً واحدة الى الصورة ، فيفهم المراد منها . ولم يكن القارىء يحتاج الى تعلم القراءة والكتابة . فكل واحد كان قارئاً كاتباً .

الفصل الثاني

الكتابة التصويرية الرمزية

لم تلبث الكتابـة أن قطعت دوراً آخر ، كما يتبين لنا من تاريخ الاقدمين كالصينيين وسكان وادي النيل وسكان مـا بين النهرين ـ دجلة والفرات . ويسمى هـذا الدور بالتصويري الرمزي . وقد سمي كذلك لان الكتابة فيه كانت مؤلفة من الصور كما كانت في الدور الاول ، ولكن هذه الصور لم تكن تُستعمل للدلالة على الامور الحسية القابلة للتصوير ، وانما اتُّخـذت رموزاً للامور المعنوية التي لا يمكن تصويرها .

كان الانسان كلما تقدم في سلم المدنية تعقدت حياته وازدادت حاجاته وعمق تفكيره وسما شعوره ، واحسَّ بالحاجة الى التعبير عن امور جديدة . وقد جاء زمان لم تبقَ فيه الكتابة التصويرية وحدها كافية للتعبير عن جميع ما يجول في خاطره لان اموراً كثيرة لا تقبل التصوير . فكيف يعبر ، مثلاً ، عن امور معنوية كالجوع والحياة والشجاعة وما الى ذلك ؟

لقد قاده الفكر ، على مر السنين ، الى استنباط حيلة اخرى للدلالة على هذه الامور المعنوية . وهي ان يكون للصورة معنى مجازيٌّ رمزيٌّ . وقد عُني بالكتابة الرمزية الاقدمون على اختلاف اجناسهم .

كان الصينيون اذا ارادوا الدلالة على اللمعان صوَّروا الشمس والقمر معاً .

واليك مثالًا من الكتابة التصويرية الرمزية عند المصريين .



الكتابة التصويرية الرمزية عند المصريين

ترى في هذا الشكل رسم صقر يقود راس انسان بحبل والى جانب الراس ست ورقـات من النبات المعروف بعرائس النيل . وفي الأسفل ترى صورة رأس حربة عقفاء وشكلًا هندسياً مستطيلًا . فالصقر يرمز الى الملك . وكل ورقة من الورقات الست ترمز الى العدد ١٠٠٠ ، والشكل المستطيل يرمز الى البحيرة . وتفسير هذا الشكل هو ان الملك أسر ستة آلاف رجل من البحيرة المعروفة ببحيرة الحربة .

واليك امثلة اخرى على الكتابة الرمزية عند المصريين . فالنحلة عندهم ترمز الى الاجتهاد ، ودرج البردي يرمز الى العلم ، وريشة النعام الى العدل (لاعتقادهم ان هذه الرياش جميعها من حجم واحد) وسعفة النخل الى العام الواحد (لانهم كانوا يقلِّمون السعف السفلى في كل عام مرة) . كذلك النسر يمثل الام عند المصريين (لاعتقادهم ان هذا الطير الكاسر يغذي فراخه بدم قلبه) ، والرجل المتورم البطن المنتفخ الاضلاع يمثل الجوع ، والعجل الوارد الى المياه يمثل العطش ، والسوط المرفوع يمثل السلطة ، والنجم المعلّق على خط منحنٍ يمثل الليل ، والذراعان اللتان تمسك احداهما سيفاً والاخرى ترساً تمثلان معركة ، والماء المتموج يمثل النهر او البحر .

ومن اطرف ما نلاحظ ان اقواماً كُثراً قد اجمعوا على طريقة تصوير بعض المعاني الرمزيـة ، فالنفي ،

مثلاً ، يعبر عنه بصورة رجل ممدود الذراعين ، والتوسل يمثله رجل مرفوع الذراعين ، والعبادة يمثلها رجل راكع مرفوع الذراعين متضرعاً .

يتبين لنا مما تقدم ان المصريين القدماء كانوا في اول الامر يستعملون الصور للدلالة على مصوّراتها ، كأن يقصدوا بصورة الانسان الانسان ، وبصورة الطير الطير ، وبصورة الجبل الجبل . وهي ابسط انواع الكتابة . ثم تدرجوا من ذلك الى استخدام تلك الصور او ما يقرب منها للدلالة على معان رمزية . وما زالوا يتفننون بكتابتهم على هذه الصورة حتى صارت تقوم لديهم بالشيء الكثير من انواع التعبير .

ولا يخفى علينا ان القارىء لا يحتاج في الدورين التصويري التشخيصي والتصويري الرمزي الى تعلم القراءة كما يتعلمها الامي في الوقت الحاضر . وجملة ما يحتاج اليه هو ان يطلع على كيفية تصوير هذه المعاني الرمزية واشباهها .

الفصل الثالث

الكتابة الصوتية المقطعية

رأينا في الفصلين السابقين ان الكتابة في اول عهدها مرت بدورين اساسيين ، الدور التصويري التشخيصي والدور التصويري الرمزي ، وان الاعتماد فيهما كان على الصور ، بحيث تدلُّ على الامور الحسيّة في الدور الاول وعلى الامور المعنوية في الثاني .

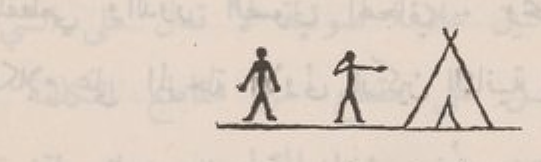
ومع تدرج الانسان في سلّم المدنية لم تبقَ الكتابة التصويرية وافية بحاجته . فقاده الفكر الى اختراع طريقة جديدة ، هي الطريقة الصوتية . في هذه الطريقة يستخدم الكاتب صوراً او علامات كانت

في اصلها صوراً . الا ان هذه الصور والعلامات لم تكن تدل على معانٍ كما في الدورين الاولين وانما دلت على اصوات .

لنأخذ مثلاً صورة الاسد عند المصريين القدماء . ان هذه الصورة تدل على الحيوان نفسه في الدور الاول وعلى الشجاعة في الدور الثاني . اما في الدور الثالث فتدل على المقطع الاول من كلمة اسد في اللغة المصرية القديمة . فاذا رأينا صورة الاسد في الكتابة الصوتية فلا يعني ذلك ان في الكتابة ما يشير الى الاسد او الى الشجاعة التي يرمز اليها الاسد . وانما يعني ان هذه العلامة تدل على مقطع من مقاطع الكلام .

والذي ساق الانسان الى استنباط هذه الحيلة الجديدة هو شعوره بحاجة جديدة . شعر بان معاني كثيرة اخذت تصعب عليه ، وبان الصور التشخيصية

والرمزية التي كان يستعملها تدل على المعاني غير مقيدة بالالفاظ . فصورة الرغيف ، مثلًا ، قد تفيد معنى الرغيف بوجه خاص ، وقد تفيد معنى الطعام بوجه



لا طعام في الخيمة

عام . كذلك قد يُعبّر هذا الشكل عن المعنى المراد به بقولنا : « لا طعام في الخيمة » او بقولنا : « لا خبز في الخيمة » وذلك لانه ليس في الصور ما يدل على الالفاظ بعينها مهما حاول القارىء ان يتقيد بها .

ومعلوم ان الانسان كلما ارتقى في سلم المدنيـة ازدادت حاجته الى تحديد معانيه وتقييدها بالالفاظ . فاذا اراد ، مثلًا ، ان يكتب صكًا او اتفاقية او معاهدة كان من الضروري ان تكون المعاني محدودة

بحيث لا تحتمل الشك او الالتباس . هـذه هي الحاجة الماسة التي قادته الى استنباط الكتابة الصوتية .

ويُقسم الدور الصوتي الى مرحلتين : الدور الصوتي المقطعي والدور الصوتي الهجائي . ونحن الآن نتابع الكلام على المرحلة الاولى تاركين الثانية للفصل الخامس .

في الدور الصوتي المقطعي تُستعمل صورة شيء للدلالة على مقطع يشبه لفظة اسم ذلك الشيء . ومعنى ذلك انه بدلًا من ان تقوم صورة الرجل المسلّح ، مثلًا ، مقام لفظ « العدوّ » عندنا استعملوها لاول مقطع منه اي ءَ او عَد . كذلك استعملوا صورة الطير للدلالة على مقطع طَ او طَي . وقس على ذلك .

واليك مثالًا على ذلك من الكتابة الهيروغليفية . ان صورة الارنب واسمه عند المصريين « وم » كانت في الاصل تدل على الارنب ، فصارت مع الايام علامة للمقطع الهجائي « وم » في اية كلمة ورد فيها

هذا المقطع . وصورة القفة واسمها عندهم « نب » كانت في الاصل تدل على القفة فصارت علامة للمقطع الهجائي « نب » حيثما وقع . اي ان العلامة التصويرية اصبحت في الحالتين علامة صوتية لا تدل على الشيء الذي تمثله ، بل على مقطع من مقاطع الكلمة ، بصرف النظر عن معنى هذا المقطع . ومتى فقدت المقاطع معناها الاصلي التصويري وبقي مدلولها الصوتي فقط صار في الامكان ان تُجمع بعضها الى بعض وتُركَّب منها كلمات جديدة .

واذا طُفتَ الديار المصرية فانك تشاهد هنالك من آثار الهياكل القديمة والتماثيل والمسلات والمدافن والاهرام ما لا يُحصيه عدّ . وكلها مغطاة بهذا النوع من الكتابة وفيها صور اناس وحيوانات من طيور وزحافات ودوابّ ، وصُورَ جبال وادوات وابنية وغير ذلك ، تدل على معانٍ تختلف تركيباً وبساطة

باختلاف ازمنة كتابتها .

وكما أن الكتابة المصرية القديمة ناشئة عن العلامات التصويرية ، كذلك الكتابة الصينية والبابلية . انظر الى الكلمات الصينية الثلاث في السطر الاول ومعناها في اللغة الصينية الحديثة الشمس والقمر والجبل . ثم

日 月 山

كلمات صينية معناها الشمس والقمر والجبل

اشكال صينية قديمة ترمز الى الشمس والقمر والجبل

قابل هذه الكلمات باخواتها في السطر الثاني وهي العلامات التصويرية القديمة التي تفيد المعاني نفسها ، تجد شبهاً عظيماً بين العلامات القديمة والحديثة ، مما يدل على ان هذه مأخوذة عن تلك .

واليك مثالًا آخر من اللغة البابلية القديمة . فالعلامة التصويرية الاولى ، من السطر الاول الى اليسار تمثل النجم ومن السطر الثاني تمثل الطير ، ومن السطر الثالث تمثل الشجرة . هذه العلامات الثلاث تطورت اشكالها قليلًا قليلًا مع مرور الاجيال حتى صارت الى الشكل الرابع الذي تراه في آخر كل سطر نحو اليمين .



تطور الكلمات من الرموز في اللغة البابلية

وان ما يصدق على الكتابة المصرية والصينية

والبابلية من هذا القبيل يصدق ايضاً على الكتابة العربية . فان حرف العين في اصل وضعه من العلامات التصويرية وهو لا يزال الى يومنا هذا شبيهاً بمركز حاسة البصر .

وهكذا نرى ان الكتابة المصرية والصينية والبابلية والعربية انبثقت كلها من الكتابة التصويرية . وفي الواقع ان الحروف الهجائية في جميع اللغات الحديثة ترجع الى اصل تصويري .

وبتطور العلامات التصويرية الى علامات صوتية مقطعية ابتدأت صناعة الكتابة الحقيقية لاول مرة في تاريخ الانسان وذلك حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد. والفضل في ذلك يعود في الدرجة الاولى الى سكان وادي النيل .

ومن يزر خرائب المدينة القديمة طيبة المبنية على انقاضها مدينة الاقصر الحديثة ، في مصر ، ويتجول

في هيا كلها العظيمة ولاسيما هيكل كرنك الشهير ،
بَرَ على جدرانها واعمدتها الفخمة وفي الكتابة الهيروغليفية
المنقوشة عليها ما يخلب الابصار وتحار بروعته الافكار .

ولا ريب في ان الكتابة المقطعية من المخترعات
المهمة . ولم ينحصر استعمالها في المصريين القدماء بل
تعدَّى الى الصينيين والبابليين وغيرهم . ولا يزال
الصينيون يستعملونها الى يومنا هذا .

ولا يخفى علينا انه بينما نرى القاري، في غنى عن
تعلم القراءة في الدورين التصويري والرمزي نراه في
اشد الحاجة الى التعلّم في الدور الصوتي . والا فكيف
يمكنه ان يعرف الصوت الذي تدل عليه الصورة او
العلامة ان لم يتعلم ذلك ، مما قسم الناس الى متعلمين
واميين .

لا ريب في ان الكتابة المقطعية ارقى من التصويرية
بدرجات . ولكنها لم تبلغ من السهولة والمرونة ما

بلغته الكتابة الهجائية ، وفيها من العيوب والمساوىء ما دفع الانسان الى استنباط ما هو افضل منها .

ولعلّ اكبر مساوئها كثرة عدد علاماتها المقطعية بالقياس الى العلامات الهجائية . وهذا يصدق على سائر اللغات . فلو اخذنا هذه الصفحة ، مثلًا ، وحللنا كلماتها الى المقاطع المختلفة التي تتركب منها والى الحروف الهجائية ايضاً ، ثم قابلنا عدد المقاطع بعدد الحروف لوجدنا المقاطع اضعاف الحروف . ان رموز الكتابة البابلية تربو على خمس مئة ، والاشورية تربو على سبع مئة .

الفصل الرابع

حل رموز الكتابة القديمة

لقد تتبعنا تطور الكتابة منذ اقدم الازمان ، واطلعنا على المراحل التي مرت بها الى ان وصلت الى صورتها المقطعية ، ووقفنا على الشيء الكثير من اسرارها ولاسيما في دوريها الاخيرين .

ويجدر بالقارىء ان يتساءل هنا ، كيف تمكن العلماء من اكتشاف اسرار الكتابة القديمة وحل رموزها . وقصدنا في هذا الفصل ان نحاول الاجابة على هذا السؤال فيما يتعلق بالكتابة الهيروغليفية من الناحية الاولى والبابلية الاسفينية من الناحية الاخرى .

لقد حار اهل العلم في امر حل رموز الكتابات الغامضة التي تغطي الآثار المصرية الفخمة في بلاد النيل . ولبثت هذه الرموز الغازاً ملتبسة مدة اجيالٍ عديدة . واذا نظرت الى هذه الرموز رأيت انها خليط من رسوم الحيوانات والطيور والزّحافات والحشرات والازهار والاوراق والاشكال الهندسية الى غير ذلك مما أشكَل امرُه على علماء الآثار .

على ان هؤلاء العلماء كانوا شديدي الرّغبة في حل الالغاز الهيروغليفية ، لانها تتضمن تاريخ امة من اعظم امم الارض شأناً وارسخها حضارةً . ومما زاد الامر اشكالًا انه لم يوجد بين ابناء مصر الحاليين من كان يعرف لغة الاسلاف الاقدمين .

ثم لاح في الافق بارق أمل في اواخر القرن الثامن عشر ، اذ هبط نابوليون الكبير وجيوشه ارض مصر . ففي يوم من الايام بينما جنوده يحفرون

الخنادق في مدينة رشيد اذ عثروا على حجر كبير منبسط عليه كتابة باليونانية وبالرموز المصرية القديمة. فسُرَّ العلماء بهذا الكنز العالمي الثمين ، وتوسموا فيه الخير ، واعتقدوا انهم اذا قابلوا النص اليوناني بالنصوص المصرية ، تيسَّر لهم اكتشاف مفتاح يتذرعون به



عثور جنود نابوليون على حجر رشيد

لقراءة الخط المصري القديم. ولكن سُرعانَ ما خاب

أملهم . فاكتشاف هذا المفتاح لم يكن بالامر اليسير .

مرَّ على هـذا الحادث نحو ربع قرن واذا بعالم افرنسي اسمه شمبوليون يفوز بحل الكتابة الهيروغليفية فيعيد الى العالم فصلاً مفقوداً من تاريخ البشر . طوله على وجه التقريب ثلاثة آلاف سنة .

وجد هذا العالم مسلَّة عليها كتابة باللغتين الهيروغليفية واليونانية . وعلم من النص اليوناني ان هذه المسلَّة مخصَّصة للملك بتولمايوس وملكته كليوباترا اللذين ملكا على مصر بعد فتح الاسكندر الكبير . فأمّل ان يكون هذان الاسمان في النص الهيروغليفي ايضاً . وكان يعلم ان الاسماء الملكية في الكتابة المصريـة يحيط بها عادةً إطار بيضي الشكل . فلما فحص النص وجد على بدن المسلة شكلين بيضيين فاستنتج انهما قد تتضمنان حروف الاسمين الملكيين فأخذ يقابل هذه الحروف بعضها ببعض حتى ثبت لديه ذلك .

انظر الى هذين الاسمين وقد كتبا بالحروف

ⲡ ⲧ ⲟ ⲗ ⲙ ⲉ ⲉ ⲥ

P T O L M E E S

اسم بتولمايوس مكتوب بالهيروغليفية ثم باللاتينية

الهيروغليفية ثم باللاتينيــة ترَ الحروف الاربعة L E O P مشتركة بين الاسمين وترَ الحرف A مكرراً في الاسم الثاني .

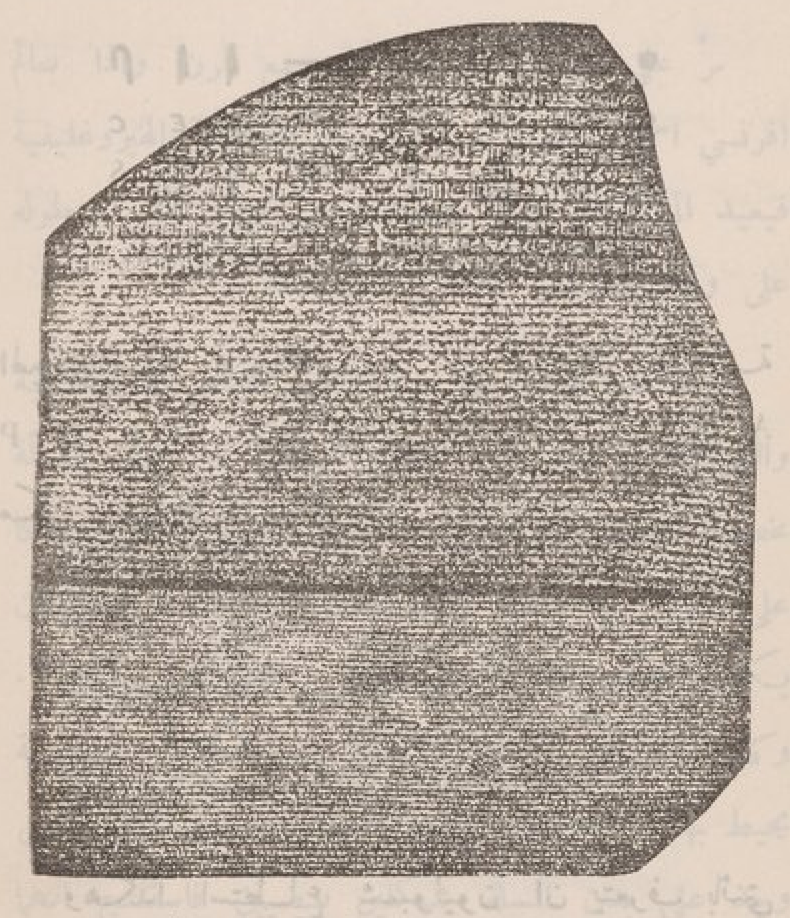
. ⲗ ⲉ ⲟ ⲡ . . . .

K L E O P A T R A

اسم كليوباترا مكتوب بالهيروغليفية ثم باللاتينية

وهكذا استطاع شمبوليون ان يتعرف باثنتي عشرة علامة من علامات هذا الخط القديم ، وان يبرهن على انها حروف هجاء . فمهد ذلك له السبيل

الى قراءة عدة اسماء اخرى ملكية . والى معرفة



حجر رشيد وهو محفوظ في المتحف البريطاني

الحروف الهجائية الاثني عشر الباقية . وفي عام ١٨٢٢

اعلن اكتشافه هذا في رسالة بعث بها الى الاكاديمية الفرنسية .

وبعد ان توصل الى هـذه الدرجة من النجاح تصدى لقراءة حجر رشيد . هذا الحجر وان لم يكن كما زعم بعضهم المفتاح الاول الذي توسّل به شمبوليون لقراءة الخط الهيروغليفي فقد كان على جانب عظيم من الاهمية . اذ مكّنه من معرفة بقية الرموز الهيروغليفية .

وكان قد نشأ عن الكتابة الهيروغليفية ، على كرور السنين ، نوعان من الخطوط ، خط مختزل اسهل على اليد وادعى الى السرعة في الكتابة ويسمى « الهيراتيك » ، وخط اكثر اختزالاً وسهولة وسرعـة ويدعى « الديموتيك » . وكأنّ المصريين القدماء استثقلوا رسم الصور الهيروغليفية رسماً دقيقاً حتى تشبه مصوراتها تماماً . فجعلوا يختصرون في رسمها . فبدلاً من ان يرسموا صورة الاسد ، مثلاً ، واضحة بكل تقاطيع

الاسد وعينيه وذيله ولبدته ومخالبه رسموها بالاختصار والسرعة حتى تشبهه . فتولد عندهم الخط المختزل .
تأمل في هذين السطرين يتبيّن لك الفرق بين الخط الهيروغليفي والخط المختزل الذي نشأ عنه .

خط هيروغليفي اصلي في السطر الاعلى

وخط هيروغليفي مختزل في السطر الاسفل

والكتابة المصرية المنقوشة على حجر رشيد كانت من هذين النوعين : الهيروغليفية الاصلية على القسم الاعلى من الحجر والهيروغليفية المختزلة على القسم الاوسط . اما النص في اسفل الحجر فهو باللغة اليونانية . ولما كانت الكتابة اليونانية ترجمة للكتابة المصرية قابل شمبوليون النصوص بعضها ببعض حتى

تمكن من حلّ جميع الرموز المصرية . وقبل ان ادركته الوفاة كان قد ألّف كتاباً في قواعد اللغة المصرية القديمة ومعجماً صغيراً لها .

اما قصة الرموز البابلية الاسفينية وكيفية حلها فلا تقلّ لذة عن قصة الرموز الهيروغليفية . وقد حار علماء العاديات زمناً طويلاً في امر هذه ، كما حاروا في امر تلك . وكان آخر انسان يحسن قراءة الخط الاسفيني قد مات قبل الفي سنة تقريباً . وبموته دُفن تاريخ بابل واشور تحت انقاض المدن التي شُيّدت قديماً ما بين النهرين .

وكاد اليأس يتطرق الى قلوب العلماء لو لم يُقيّض لحل هذه الرموز في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، عالمان ، احدهما الماني واسمه غروتغند والآخر انكليزي واسمه رولنصن . وقد ساعدهما على ذلك كتابة الفرس الذين كانوا قد اخذوا عن البابليين

صناعة الخط الاسفيني وتعلموا منهم الكتابة على اللبن .

وفي يوم من الايام كان العالم غروتفند يدرس كتابتين فارسيتين . لاحظ ان الكلمة الواحدة ، مكررة مراراً عديدة .

الكتابتان الفارسيتان القديمتان اللتان حُلّت رموزهما اولاً

هذه صورة الكتابتين وقد رُقِّمت لفصل الكلمات بعضها عن بعض . قابل في الشكل الاول الكلمات رقم ٢ و٤ و٥ و٦ تجِد انها كلمة واحدة . ثم قابل

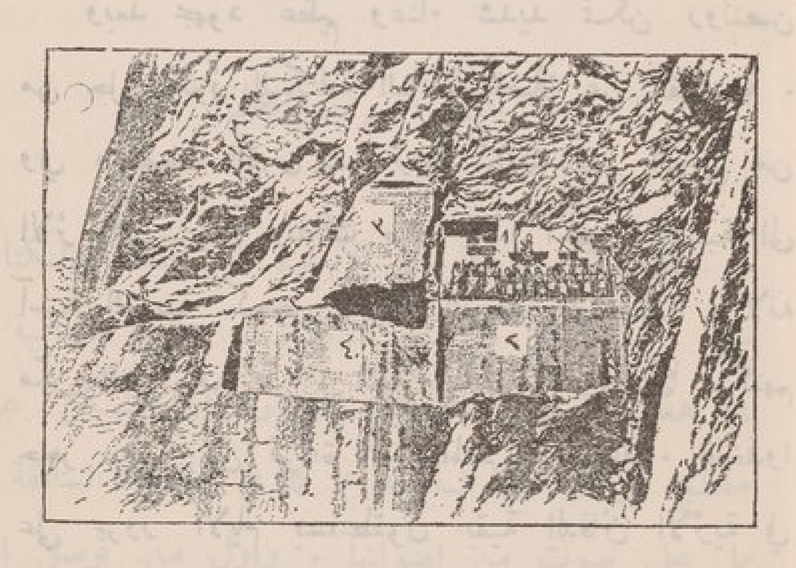
الكلمات رقم ٢ و٤ و٥ و٧ في الشكل الثاني تجد ان هذه الكلمة نفسها كُررت هناك ايضاً . وبما ان هاتين الكتابتين وُجدتا فوق صور ملوك فارسيين ، تبادر الى ذهن غروتغند ان الكلمة المكررة يُحتمل ان يكون معناها « ملكاً » وان الكلمة التي تتقدمها في اول الكتابة يُرجّح ان تكون اسم ملك من ملوك الفرس . ثم انه بعد بحث طويل وتجارب عديدة ثبت لديه ان الكلمة المكررة معناها « ملك » وان الكلمة الاولى في الشكل الاول هي اسم الملك داريوس والكلمة الاولى في الشكل الثاني هي اسم الملك احشويروش . وبذلك اكتشف عدة حروف اسفينية كانت هي المفتاح لمعرفة بقية الحروف . وبعد جهد عظيم تمكّن من قراءة هاتين الكتابتين ، فكانتا باكورة الكتابات الاسفينية التي قُرئت حديثاً . على انهما لم تتضمنا جميع الحروف الفارسية . فظـل بعضها غير محلول الرموز .

ثم جاء العالم رولنصن وتابع درس الكتابة الفارسية حتى انجز قراءتها ونشرها كاملة ، وعددها تسعة وثلاثون حرفاً . والذي ساعده على ذلك ان حكومته الانكليزية اوفدته في اواسط القرن التاسع عشر بمهمة تدريب الجيش الفارسي . فسرّ بهذه الفرصة النادرة — فرصة الوجود في بلاد تكثر فيها الكتابات الاسفينية التي أولع بحل رموزها .

وفي جملة ما عكف على دراسته هناك اثر كتابي جليل يُعرف بالاثر البهستوني ، يرجع تاريخه الى القرن السادس قبل الميلاد . وهو اقدم سجل تاريخي باقٍ في آسية الغربية . وقد سمي بهذا الاسم نسبة الى المكان الذي وجد فيه . وبهستون تبعد نحو ثلاثين كيلومتراً عن مدينة قرمانشاه .

وُضع هذا النصب المظيم في مكان عال على هضبة تشرف على الطريق السلطاني . ومع ان الوصول اليه

كان محفوفاً بالاخطار فقد خاطر رولنصن مخاطرة عظيمة وتسلقه مراراً عديدة حتى نسخ جميع مكتوباته عن كثب . وهو يتألف من اربعة اقسام رئيسية :



حجر رشيد الآسيوي على صخرة بهستون

١ التصاوير الناتئة ٢ كتابة مهمة في اسطر عمودية علوها اربعة امتار سُجّل فيها باللغة الفارسية انتصار داريوس على اعدائـه في الثورات التي تلت جلوسه

على العرش . اما القسمان الآخران ٣ و٤ فهما ترجمتان للنص الفارسي باللغتين البابليـة والشوشنية . وجميع هذه النقوش مكتوبة بحروف مسمارية .

وبعد مجهود عظيم وعناء شديد تمكن رولنصن من حل رموز الكتابة البابلية فضلاً عن الفارسية . وفي منتصف القرن نشر ترجمة كاملة للقسم البابلي من الاثر البهستوني وبذلك صار هذا الحجر بالنسبة الى آسية الغربية كحجر رشيد بالنسبة الى مصر . لانه مكّن العلماء من قراءة اللغة البابلية القديمة كما مكنهم حجر رشيد من قراءة اللغة المصرية القديمة . فاخذوا على مرور الايام يستنطقون بقية الدفائن الاثرية في قلب التلال التي قامت عليها في القديم مدن بابل وأشور فكانت النتيجة ان وجدوا تاريخ آسية الغربية بعد ان لبث في ظلمات الخفاء حِقَباً طوالاً .

الفصل الخامس

الكتابة الصوتية الهجائية

نأتي الآن الى المرحلة الاخيرة التي قطعتها الكتابة حتى وصلت الى صورتها الحاضرة . وهي الهجائية . في هذه المرحلة لا تدل الصورة او الشكل على مقطع من مقاطع الكلمة ، كما في المرحلة السابقة ، بل على صوت من اصواتها . واول من توصل الى هذه الفكرة ، على ما تبين لنا ، هم المصريون القدماء .

والظاهر ان اولئك المصريين لاحظوا ان الكلمات لا يمكن تحليلها الى مقاطع فقط بل الى اجزاء اصغر منها وهي الاصوات المفردة او الحروف . وهذه

الكلمات التي تقراها الآن انما هي مركّبة من حروف هجائية أو علامات صوتية شبيهة بالعلامات الصوتية التي كانت تُستعمل في المرحلة السابقة . ولا فرق بين علامات هذه المرحلة وتلك الا ان هذه العلامات ترمز الى صوت واحد بينما ترمز تلك الى مقطع واحد سواء أتركّب هذا المقطع من صوت واحد ام من مجموعة اصوات .

وكانت حروف الهجاء المصرية اقدم الحروف في العالم ، وكان عددها اربعة وعشرين حرفاً . الا ان هذه الحروف لم تحلّ عند المصريين محل العلامات التصويرية وانما انحصر استعمالها في كتابة الاعلام . وظلت معظم كتاباتهم بالهيروغليفية .

ولا بد لنا من الاشارة في هذا الصدد الى ان انتقالّ الكتابة من دور الى دور لم يتم طفرة واحدة بل تدريجاً ، وكانت تلتقي كتابة الدور الواحد بكتابة

الدور الآخر .

على ان الكتابة المصرية القديمة قد التقت فيها الادوار الثلاثة جميعاً . فنرى في الصفحة او اللوحة الواحدة منها كتابة تشخيصية ورمزية وهجائية .

واول من مارس الكتابة بالحروف الهجائية دون غيرها من العلامات هم الساميون من سكان شبه جزيرة سيناء . ومع انهم أخذوا حروفهم عن الحروف المصرية في الاصل فلم ينقلوها نقلاً وانما ابدعوا على منوالها حروفاً بسيطة تلائم لغتهم السامية . وان اقدم أثر لهم اكتشف حديثاً في سيناء ويرجع تاريخه الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد . فكيف نشأت الكتابة الهجائية في تلك البقعة النائية ؟

لقد اشتهرت سيناء بمعادنها منذ اقدم الازمان ، واكتشفت فيها المعادن لاول مرة في التاريخ ، على ما يزعمه بعض المؤرخين . وذلك ان رجلاً كان يسيح

في تلك الجزيرة . وفي ليلة من الليالي الباردة اضرم النار طويلاً امـام خيمته وكانت تحيط بها بعض الحجارة . ولما استفاق من نومه في الصباح عمد الى موقد النار وحرك الرماد قليلاً واذا بحُبَيبات معدنية تتألق بنوز الشمس فالتقطها واخـذ يتأمل فيها ولم يعلم من اين اتت . ولكنـه لما كرر التجربة في الليالي التالية ايقن ان مصدرها الحجارة التي كانت تحيط بالنار .

ومع كرور الاجيال تنبهت افكار المصريين الى وجود هذه المعادن في شبه جزيرة سيناء ، ولاسيما النحاس والزمرد .

وعندما ازدهرت بلادهم منذ اربعة آلاف سنة تقريباً وصاروا في رغَد العيش وبُحبوحته ، واخذوا يبنون افخم البيوت وينعمون باجود الاثاث ويلبسون افخر الثياب ترصّعها الجواهر والحلى ، ازدادت حاجتهم

الى النحاس والزمرد . فقام احد فراعنة القرن التاسع عشر واخذ يرسل الى شبه جزيرة سيناء بعثات صناعية تجارية في طلب هذا المعدن وذلك الحجر الكريم .

وكان المصريون في هذه البعثات لا يستصحبون كل ما يحتاجون اليه من العُمّال بل يستخدمون سكان شبه الجزيرة ويعتمدون عليهم ، الى حد بعيد ، في استخراج المعادن وادارة مناجمها . وكان هؤلاء العُمّال يستفيدون من مصر كثيراً ، لا من حيث اموالها وخيراتها فحسب ، بل من حيث علومها ومعارفها .

وكان يصحب البعثات في تلك الايام كتبة خبراء بالخط المصري — الهيروغليفي منه والمختزل . هؤلاء الكتبة كانوا يمسكون دفاتر المصلحة ، فيكتبون عدد المستخدمين والمبالغ التي تنفق على العمل وكميات المعادن التي تستخرج وتُرسل الى مصر . وكانوا بطبيعة الحال على اتصال بالنُظّار يستعلمونهم عن العَمَلة الذين

يشتغلون تحت امرتهم . وكثيرون من هؤلاء النظار كانوا من سكان سيناء .

في ذلك الزمن استنبط اهل سيناء الحروف الهجائية الجديدة التي تُعتبر اليوم أمًّا للحروف الهجائية في جميع اللغات . فباتصالهم بالكاتب المصري تنبّهت افكارهم لاهمية الكتابة في الحياة ، واخذوا يتأمّلون فيما يُكتب ويقلدونه . وفي التقليد النابه عادةً شيء من الابتكار .

لقد كانت اللغة المصرية غريبة عنهم وكانت الكتابة المصرية معقّدة في نظرهم ، فسعوا ان يبسطوا رموزها وان يكيّفوها لتلائم لغتهم السامية . وكانوا موفقين في مسعاهم وتركوا لنا من آثارهم في تلك الديار ما يُعَدُّ اليوم اقدم كتابة هجائية صِرفة عرفها البشر . واول كتابة من هذا النوع عثر عليها العلماء في سيناء سنة ١٨٦٨ للميلاد . والنموذج الذي تراه في

هذا الشكل وُجد على مدخل احد المناجم هنالك وهذا تفسيره : « انا المُعدّن (فلان) ناظر المنجم رقم ٤ » .

كتابة اهل سيناء القدماء

وتمتاز الحروف الهجائية السينائية عن المصرية ان كل واحد منها كان يدل على الصوت الاول من اسم الشيء الذي تمثله صورة الحرف . مثال ذلك اننا لو جئنا نستنبط حروفاً جديدةً على هذا النمط لرسمنا صورة الموز

او المشمش للدلالة على حرف الميم ، وصورة القلم او القوس للدلالة على حرف القاف ، وصورة الرغيف او الراس للدلالة على حرف الراء .

كذلك شأن الحروف السينائية . فان حرف الالف وتمثله صورة راس الثور يدل على الصوت الاول من كلمة « ألف » ومعناها الثور في لغتهم . وحرف الباء وتمثله صورة البيت كما يتبين من هذا الشكل ⊓ يدل على الصوت الاول من كلمة « بت » ومعناها البيت في لغتهم . وهكذا الى آخر الحروف .

وجدير بالذكر في هذا الصدد انه عندما انتقلت الالفباء الى اللغات الاخرى لم يبقَ ثمة علاقة معنوية بين صورة الحرف واسمه . فلو اخذنا حرف الالف في لغتنا العربية ، مثلاً ، فاين العلاقة المعنوية بين شكل هذا الحرف وبين اسمه ، في الوقت الذي لا تفيد كلمة « الف » معنى الثور عندنا كما تفيده في

اللغة الاصلية . وبعبارة اخرى ان اللغات التي اقتُبست حروفها من الالفباء السينائية حافظت على كثير من اسمائها الاصلية بقطع النظر عن معنى هـذه الاسماء ومدلولها .

والظاهر ان الالف والباء هما الحرفـان الأوّلان اللذان تعلمهما اهل سيناء ولذا جعلوهما في مقدّمـة الحروف الهجائية . كذلك فعل سواهم من الشعوب التي اخذت عنهم . اضف الى ذلك ان الحروف كلها سُمّيت باسم هـذين الحرفين من قبيل تسمية الكل باسم البعض ، ويطلق اسم الالفباء على هذه الحروف ، ليس في اللغة العربية فحسب ، بـل في غيرها من لغات العالم .

واليك جدولًا بالالفباء السينائية والفينيقية مع اسمائها ومعانيها .

جدول الالفباء القديمة

الالفباء الفينيقية	الالفباء السينائية	اسماؤها بالفينيقية	معانيها	اسماؤها بالعربية
		الف	ثور	الف
		بيت	بيت	باء
		جيمل	جمل	جيم
		دالت	باب	دال
		ه	شباك ؟	هاء
		واو	دبوس ؟	واو
	(?)	زين	سلاح ؟	زاي
		حيت	حيط	حاء
		طيط	حية ؟	طاء
		يود	يد	ياء
		كاف	كف	كاف
		لامذ	مسأس	لام
		ميم	مياه	ميم
		نون	سمك	نون
		سامك	دعامة ؟	سين
		عين	عين	عين
		فا	فم	فاء
		صادي	سنارة ؟	صاد
		قوف	اذن ؟	قاف
		ريش	رأس	راء
		شين	سن	شين
		تاو	علامة	تاء

واذا تأملنا الحروف الفينيقية في هـذا الجدول رأينا اشكالها شبيهة بما تدل عليه من المعاني ، وان كان الشبه في بعضها غير واضح . فان الجيم تشبه راس الجمل . والدال تشبه باب الخيمة . والياء تشبه اليد باصابعها . والطاء تشبه الحية اذا التفت على نفسها . والميم تشبه تموج المياه . والنون تشبه السمكة المستطيلة اذا تلوت . والعين تشبه عين الانسان . والفاء تشبه فماً مفتوحاً . والصاد تشبه السنارة التي يصطادون بها السمك .

هذه هي قصة عمال شبه جزيرة سيناء الاذكياء الذين لعبوا دوراً مهماً في رواية التقدم البشري من حيث لا يدرون . هنالك في تلك البقعة النائية بدأ الناس يستعملون لاول مرة في التاريخ اقل من ثلاثين علامة لكتابة كل ما يريدون ، بدلاً من ان يستعملوا مئات العلامات كما كان يفعل جيرانهم المصريون من

قبل ، او الوف العلامات كما يفعل الصينيون الى يومنا هذا . ومع ان اولئك العمال السُذَّج لم يتركوا من آثارهم الكتابية الا الشيء القليل فانهم وضعوا الحجر الاساسي لاختراع هو من اعظم الاختراعات اثراً في تاريخ الحضارة .

ومما يستحق الذكر ان اهل سيناء ، والفينيقيين والآراميين من بعدهم ، لم يفكروا قط في استخدام هذه الكتابة لغير المعاملات التجارية والكتابية على القبور وما اشبه . ولعل اول الامم التي استخدمتها لغرض اسمى وابعد اثراً من ذلك هم العبرانيون والهنود واليونانيون . فالعبرانيون كتبوا بها مجموعة من الاسفار المعروفة بالعهد القديم . والهنود كتبوا بها نحو عشرة مؤلفات هي اليوم من اعظم المؤلفات في العالم . واليونان كتبوا بها مؤلفاتهم العديدة في العلم والفن والفلسفة .

الفصل السادس

الالفباء الفينيقية وفروعها

لا بد لنا الآن من ان ننظر في امر انتقال الالفباء من موطنها الاصلي في الديار المصرية وشبه جزيرة سيناء ، الى سائر انحاء المعمور .

سافرت الالفباء اسفاراً بعيدة . وكانت هذه الاسفار تارةً في البر وتارة في البحر . تارة فوق السفن ، وتارة على متون الدوابّ او الارقّاء ، وطوراً في صدور رجال العلم وهم يتنقلون من مكان الى آخر .

ولعل الفضل الاكبر في انتقالها من قطر الى قطر يعود في الغالب الى التجارة . تتبّع حركة انتقالها

من مصر الى شبه جزيرة سيناء . ومنها جنوباً الى بلاد اليمن والحبشة ، وشمالاً الى الاراضي السورية . ومن ثم شرقاً الى العراق وايران والهند ، وغرباً عبر البحر المتوسط الى بلاد اليونان والرومان وسائر البلدان الاوربية ، تجد ان للتجارة اليد الطولى في تسهيل هذا الانتقال .

من أهم التجار القدماء الذين عملوا على نقل الالفباء من مهدها الاصلي هم الفينيقيون سكان السواحل اللبنانية ، والآراميون سكان الاراضي السورية الداخلية . اخذت هاتان الأمتان الالفباء الاصلية واحدثتا فيها من التغييرات ما يلائم حاجتها ، فكانت الحروف الفينيقية والحروف الآرامية امهات للحروف الهجائية في معظم البلدان .

وقد تفرع عن الحروف الفينيقية ، عدة حروف اهمها اليونانية والرومانية وسائر الحروف الاوربية ،

وتفرّع عن الآرامية عدة حروف اهمها العربية بخطها الكوفي ، وخطها النسخي .

ونحن في هذا الفصل نتابع الكلام عن الالفباء الفينيقية وفروعها ، تاركين النظر في الالفباء الآرامية للفصل القادم .

الفينيقيون من اقدم الشعوب السامية التي نزحت عن شبه جزيرة العرب حوالي سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد . وقد استقروا على السواحل اللبنانية . وكانت صور وصيدا وجبيل من اهم مدنهم الساحلية .

وكانوا على جانب عظيم من النشاط التجاري في البر والبحر معاً . فكانوا يحملون من لبنان الى مصر خشب الارز الذي كان يصنع منه المصريون سقوف الهياكل وابوابها . ثم يعودون الى بلادهم وقد ابتاعوا كميات من نحاس سيناء ليصنعوا منه الآنية المعدنية او يصدِّروه الى الخارج . وفي اثناء تعاملهم مع سكان

سيناء اقتبسوا منهم الشيء الكثير من فن الكتابة . وكما ان تجارتهم البرية كانت وسيلة لاخذهم الالفباء عن سيناء كذلك كانت تجارتهم البحرية وسيلة لانتقال هذه الحروف الى اليونان .

واخذ اليونانيون الالفباء عن الفينيقيين . والادلة على ذلك كثيرة . منها ان الحروف اليونانية القديمة تشبه الحروف الفينيقية من حيث شكلها ولفظها . ومنها ان ترتيب اكثر الحروف اليونانية كترتيب الفينيقية ، فالحرف الاول فيها يقابل الالف والثاني الباء والثالث الجيم والرابع الدال ، وهكذا كما في الحروف الفينيقية . ومنها ان اسماء الحروف اليونانية كاسماء الفينيقية ، فان الحرف الاول الذي يقابل الالف اسمه « ألفا » والذي يقابل الباء اسمه « بيتا » وقس على ذلك سائر الحروف .

وقد قاوم اليونانيون استعمال الحروف الفينيقية في

اول الامر وسمّاها بعضهم « بالعلامات المقوتة » لكنهم خضعوا لسلطانها على كرور السنين ، واقتبسوها بعلاماتها واسمائها واخذوا يكتبون لغتهم بها . ثم انهم ما لبثوا ان رأوا انها خالية من حروف العلة او الحركات فاعتمدوا علامات خاصة للدلالة عليها ، واضافوها الى الالفباء التي تعلموها ، فاصبحت كاملة بحروفها الصحيحة والمعتلة .

وكان اليونانيون ، في اول امرهم ، يكتبون من اليمين الى اليسار ، كما فعل معلموهم الفينيقيون من قبل . ثم اخذوا يكتبون على الوجهين اي من اليمين الى اليسار ثم من اليسار الى اليمين ، مبتدئين كل سطر حيث ينتهي سابقه . واخيراً اعتمدوا ان تكون كتابتهم كلها من اليسار الى اليمين فاتجهت حروفهم كلها نحو اليمين .

ثم ان اليونانيين الذين اخذوا الالفباء عن الفينيقيين

اعطوها بدورهم الى الرومانيين وذلك بطريق التجارة ايضاً . فكان التاجر الروماني يتعلم تدريجاً قراءة اللوائح التجارية التي كان يسلِّمه اياها التجار اليونانيون، وبعد امد قصير صار يكتب لوائحه ومذكراته بالحروف اليونانية نفسها . وعلى مرور الايام أدخل الرومانيون على هذه الحروف تغييرات طفيفة اقتضتها اللغة اللاتينية، فحذفوا بعض زوائدها واتموا بسط اشكالها، فاصبحت بغاية البساطة والجلاء . وهكذا تقدمت الالفباء الشرقية مرحلة أخرى في سفرها نحو الغرب ولم يمض عليها وقت طويل حتى صارت تُكتب بها معظم لغات اوربا واميركا .

واليك نموذجاً من الحروف اللاتينية قبل ان اتخذت شكلاً نهائياً، وقد كتبت بها اسماء ثمانية من الالهة كما ترى . قابل هذه الاسماء بعضها ببعض تلاحظ امرين جوهريين :

اسماء آلهة كتبت بالالفباء الرومانية القديمة

اولًا ، ان شكل الحروف في اول عهدها يختلف عنه في الوقت الحاضر ، وهذا امر طبيعي منطبق على سنة النشوء والارتقاء .

ثانياً ، ان بعض هذه الاسماء مكتوب من اليمين الى اليسار وبعضها من اليسار الى اليمين . ويدلنا ذلك على ان كُتّاب اللاتينية في اول امرهم لم يعتبروا اتجاه الكتابة امراً جوهرياً .

وفي النتيجة اتخذت اللغات الاوربية الحديثة حروفها عن الحروف اليونانية والرومانية . وتقسم هذه الحروف اليوم الى اربعة اقسام اساسية :

(١) الحرف الروماني ، وتكتب به اللغة الانكليزية والفرنساوية والاسبانيولية والايطالية وغيرها .

(٢) الحرف القوطي ، وتكتب به اللغات الجرمانية كالالمانية والنمساوية .

(٣) الحرف السلافي ، وتكتب به لغات روسيا وسائر البلدان السلافية .

(٤) الحرف اليوناني ، وتكتب به اللغة اليونانية القديمة والحديثة .

والخلاصة ، ان جميع هذه الحروف ترجع الى اصل واحد هو الحرف اليوناني القديم . وهذا الحرف مأخوذ بدوره عن الحرف الفينيقي كما تقدم .

الفصل السابع

الالفباء الآرامية وفروعها

نتقل الآن الى الكلام عن الآراميين وحروفهم الآرامية التي تفرعت عنها حروف كثيرة ، منها الحروف العربية بخطها الكوفي وخطها النسخي .

الآراميون من الشعوب السامية التي نشأت في شبه جزيرة العرب التي نزحوا عنها بين سنة ١٢٠٠ و ١٥٠٠ قبل الميلاد واستقروا في الاراضي السورية واللبنانية ولاسيا سهل البقاع . وكانت دمشق من اهم مدنهم .

وقد بلغ الآراميون درجة عالية من المدنية

وكانوا على جانب عظيم من النشاط التجاري ، فحملت قوافلهم سندات التجار ولوائح حساباتهم الى اطراف آسية الغربية ، ثم جاوزت الفرات الى بلاد فارس واواسط آسية ، حتى وصلت الى الهند . وكانت تلك السندات واللوائح مكتوبة بالحروف الهجائية التي اخذوها عن اهل سيناء . فحيثما سار التجار الآراميون كانت تسير معهم لغتهم وحروفهم .

ومع كرور السنين صارت لغتهم لغة الهلال الخصيب برمته واصبحت حروفهم حروف البلدان الآسيوية الواقعة بين سواحل الهند الشرقية والسواحل السورية . فالحروف الهندية السانسكريتية نفسها هي من الحروف الآرامية .

وفي الاصل كانت الحروف الآرامية هي الحروف الفينيقية بعينها . لكنها تغيرت وتنوعت مع مرور الاجيال ، حتى صار لها اشكال خاصة . ثم ما لبثت

ان انتشرت في جهات آسيا ، واخذ يظهر فيها التنوع وتتولد منها الفروع . فتباينت عند كل قوم تبايناً اقتضته طبيعتهم واحوالهم ، وما زال ذلك التنوع يزداد على توالي الاجيال حتى اصبحت حروف كل بلاد منفصلة عن الاخرى .

سبق لنا القول ان الخط الكوفي تفرع عن الحروف الآرامية . واليك نموذجاً منه .

سلامة الانسان في حفظ اللسان

نموذج من الخط الكوفي

(سلامة الانسان في حفظ اللسان)

وهذا الخط ، كما ترى ، جامدٌ ، كثير الزوايا ، عسر الكتابة ، لا ينقاد لسرعة اليد . فلذلك لم يكن ليفي بجميع الحاجات اليومية ، فانحصرت فائدته على الاكثر في كتابة القرآن الكريم وصك النقود ونقش

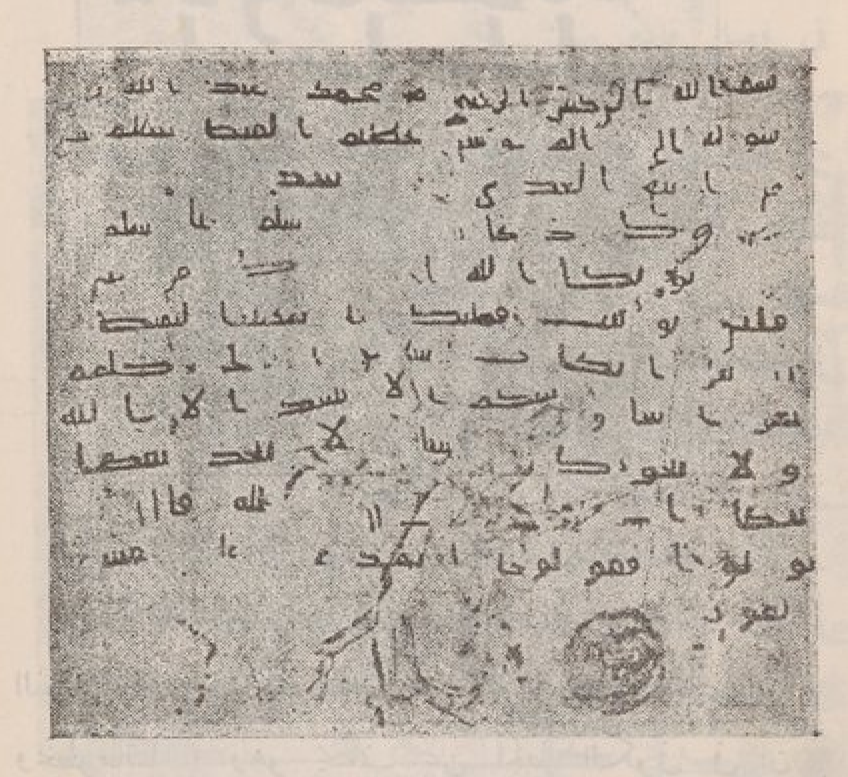
الآثار الحجرية ، وكان تطوره بطيئاً فلم يمضِ عليه زمان طويل حتى قلَّ استعماله وحلَّ مكانه خط اقدر منه على مسايرة الزمان .

وإنَّ اقدم ما عثر عليه العلماء من الخط الكوفي الكتابة التي نقشها الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان على قبة الصخرة في بيت المقدس سنة ٧٢ للهجرة ، وكتابة أخرى وجدت على قبر قديم في مدينة القاهرة يرجع تاريخها الى سنة ٣١ للهجرة .

وقد كان المظنون ان الخط الكوفي هو الاصل الذي تفرع عنه الخط النسخي وسائر الخطوط والاقلام العربية . ولكن الأبحاث والاكتشافات الاخيرة اثبتت أن هذه النظرية بعيدة عن الصواب ، وان الخط النسخي قديم كالخط الكوفي ، وكلاهما تفرّعا عن الخط الآرامي .

واليك نموذجين من الخط القديم . اولهما من

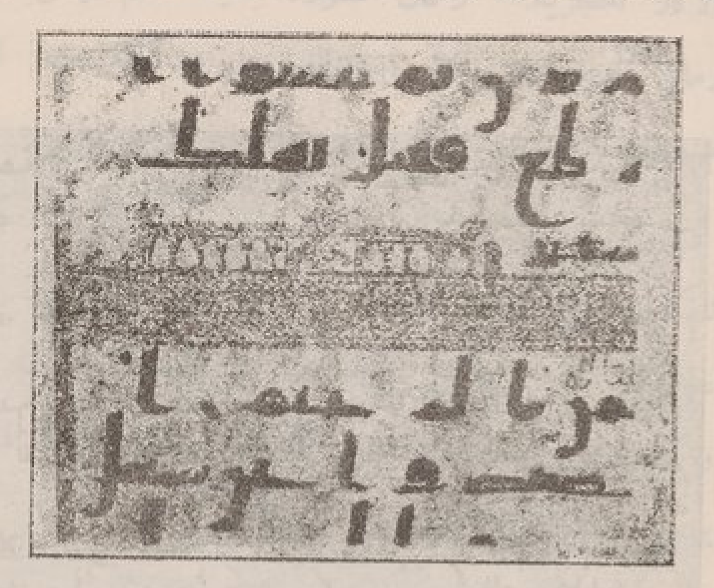
كتب النبي الى معاصريه يدعوهم الى الاسلام .



من كتب النبي الى معاصريه يدعوهم الى الاسلام

والثاني صفحة من القرآن الكريم يرجع تاريخها

الى القرن الاول للهجرة



صفحة من القرآن الكريم من القرن الاول للهجرة

وتولّد كذلك عن الحروف الآرامية الخط العربي النسخي ، وهو الخط الذي نستعمله اليوم في مطبوعاتنا ومخطوطاتنا ، وهو يختلف عن الخط الكوفي في أن حروفه قليلة الزوايا، كثيرة المرونة ، قريبة المتناول ، سهلة الانقياد لسرعة اليد . لذلك اقبل الكتاب عليها منذ القديم يستعملونها لحاجاتهم المختلفة ، وما زالوا

ينقحونها ويحسنون اشكالها جيلاً فجيلاً حتى تطورت تطوراً طبيعياً ، ونشأت عنها اقلام مختلفة كما سنرى في فصل قادم .



صفحة من القرآن الكريم كتب بالحرف النسخي
في القرن الرابع للهجرة

وجدير بالذكر في هذا الصدد ان هنالك بين الحروف الآرامية والحروف العربية النسخية حلقة اتصال هي الحروف النبطية . اي ان حروف الخط النسخي تولدت من الحروف الآرامية عن طريق الحروف النبطية .

والانباط من الشعوب العربية التي استوطنت البلاد السورية في العصور القديمة ، وكان لهم دولة شهيرة عاصمتها البتراء بالقرب من معان ، وكان لهم تاريخ مجيد تدلنا عليه آثار هذه العاصمة .

وكانت لغة التخاطب عندهم اللغة العربية . اما لغة العلم فكانت الآرامية . وكانوا يكتبون بالحروف الآرامية في اول امرهم ، الا انهم ما زالوا ينقحون هذه الحروف ويعدلون اشكالها حتى صار لهم حروف خاصة بهم تعرف بالحروف النبطية . ومن هذه الحروف تولدت الحروف العربية بخطها النسخي .

والكتابة التي وجدت على قبر امريء القيس ، احد ملوك الحيرة ، هي من اقدم ما وصل الينا من الخط النسخي ، لان تاريخها يرجع الى القرن الرابع للميلاد ، اي قبل الهجرة النبوية بثلاثة قرون . واليك صورة هذه الكتابة مع ايضاحها وتفسيرها سطراً سطراً .

الكتابة على قبر امريء القيس

١. تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج

هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج

٢. وملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو
عكدي وجاء

وتملك الاسديين ونزارا وملوكهم وهزم مذحجا
اليوم وجاء

٣. بزجو في حبج نجران مدينة شمرو وملك معدو
ونزل بنيه

بغنائم في مجتمع نجران مدينة شمر وملك معدا
وانزل بنيه

٤. الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه
الشعوب ود كله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥. عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسول بلسعد ذو ولده
اليوم هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ ايلول فليسعد الذين ولدهم

وقبل الفراغ من هذا الفصل ، لا بد لنا من الاشارة الى ان في البلاد العربية اليوم نزعة الى

اصلاح الحروف الكتابية . وقد انقسم قادة الفكر في هذا الباب الى ثلاث فرق .

فمنهم من يقول بوجوب الغاء حروفنا الحاضرة واستبدالها بالحروف اللاتينية ، كما فعل الاتراك بعد الحرب العالمية الاولى ببضع سنوات .

ويقوم حيال هؤلاء المتطرفين فريق آخر يذهب الى ان الحروف العربية « قد بلغت الكمال ، وانها كلها بحكمة صُنِعَت ، وان ليس في الامكان ابدع مما كان » .

وهناك بين هذين الطرفين فريق وسط يقول بوجوب اصلاح الحروف العربية ، بحيث لا تخرج عن صورتها الاصلية ، وانما تتغير قليلاً وفقاً لمقتضيات العصر الحديث ، وجرياً على سنة النشوء والارتقاء .

وقد اهتم مجمع فؤاد الاول للغة العربية اهتماماً

كبيراً بهذه الحركة الاصلاحية ، فأقام في السنوات الاخيرة مسابقـة موضوعها « اقتراح افضل مشروع لتسهيل الكتابة العربية » ، ووضع لها جائزة الف جنيه مصري . ثم الف لجنـة لدرس الاقتراحات المقدّمة ووضع التقارير عنها .

شرق الاردن . فلسطين . سوريّا
لبنان . مصر . العراق . بلاد العرب

أسماء عربيّة

١ - الاستاذ بهيج بك السعيد
٢ - السيّد عبد القادر ابو الفتح
٣ - الشيخ عارف تاج الدين
٤ - الاديب يوسف شلهوب
٥ - الآنسة هدى فرج الله

نموذج من الحروف العربية الجديدة

وقابل رجال الاختصاص في الاقطار العربية هذه

المباراة بحماسة عظيمة ، فقد اشترك فيها حتى الآن ما يناهز الالفي شخص . واللجنة الفنية مشغولة بدرس الاقتراحات المتعددة . ولعل نتائج هذه المباراة تظهر في المستقبل القريب .

وقد اثبتنا على الصفحة السابقة نموذجاً من الحروف العربية الجديدة المصلحة .

الفصل الثامن

الاقلام العربية

رأينا في الفصلين السابقين ان الالفباء الفينيقية والآرامية تغيرت وتطورت مع مرور الاجيال حتى تولدت منها حروف متنوعة . ورأينا ان الخط العربي يقسم الى قسمين اساسيين : الخط الكوفي والخط النسخي .

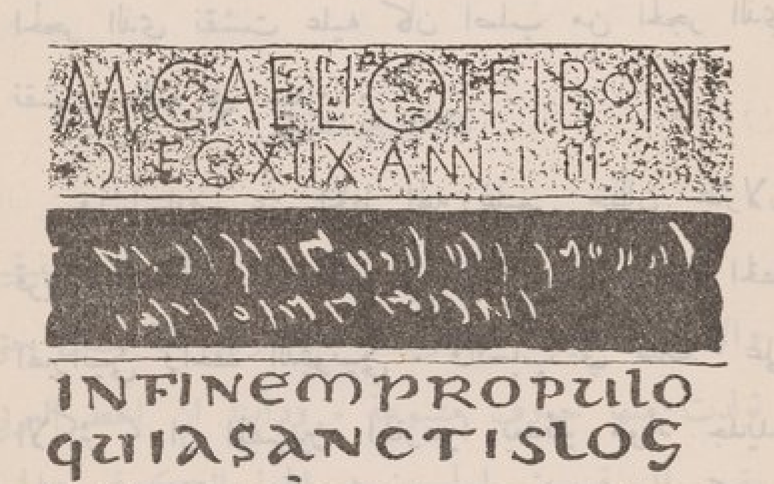
واوجدت الظروف والاحوال اسباباً افضت الى تغيير اشكال الحروف وتحويرها . ولعل اهم هذه الاسباب اثنان :

الاول أن موادّ الكتابة كانت تتبدّل بتبدّل

الزمان والمكان . ولمواد الكتابة اثر في الخطوط . مثال ذلك ان الحروف الهجائية الاصلية تغيّر شكلها عند انتقالها من شبه جزيرة سيناء الى بلاد اليمن ، لان الحجر الذي نقشت عليه كان اصلب من الحجر الذي نقشت عليه في سيناء .

ونشأ ايضاً عن الخط الهيروغليفي خطّان مختزلان قريبا المتناول ، كما قلنا في فصل سابق ، وهما الخط الهيراتيكي والخط الديموتيكي . والسبب في ذلك ، على الاكثر ، ان المصريين اخترعوا بعدئذٍ موادّ جديدة للكتابة هي القلم والحبر وورق البردي . والكتابة بالقلم على الورق الصقيل اسهل منها مِراساً من النقش بالازميل على الحجر الاصم . فصار الكاتب يخطّ في ساعة واحدة ما يعجز عن نقشه في ساعات عديدة . فلا عجبَ ان فقدت الكتابة المصرية القديمة عند عامّة الكُتّاب شيئاً من رسومها الجميلة واشكالها المُتقنة .

وكذلك الحروف اللاتينية التي كانت جامدة على الحجر الصلب صارت مرنةً طيّعة على الرق الصقيل ، ثم اصبحت مائعة على الشمع الزَلق .



كتابة لاتينية على الحجر فالشمع فالرق

والسبب الثاني في تغيير اشكال الحروف الهجائية هو اصطدامها في بعض الاماكن بحروف اخرى . مثال ذلك ان الالفباء العربية ، عندما انتشرت بانتشار الاسلام ولغته ، اصطدمت في البلدان المفتوحة بحروف

هجائية اخرى ، ثم حلت محلها مع مرور السنين . ففي سوريا والعراق حلت الالفباء العربية محل السريانية واليونانية ، وفي ايران حلت محل البهلوية ، وفي مصر حلت محل القبطية واليونانية ، وفي شمالي افريقيا حلّت محل البربرية . غير ان هذه الحروف المختلفة أثّرت في اشكال الحروف العربية ، فنشأ عن هذا التأثير اقلام او خطوط متنوعة .

والسبب الثالث في تغيير اشكال الحروف العربية هو ان العرب أظهروا منذ اول عهدهم بالكتابة ميلًا الى التفنن في الخط الذي لعب عندهم دوراً مهمًا في فن التزويق والزخرفة . وها هوذا تاريخهم حافل باخبار الخطاطين وانواع الخطوط او الاقلام التي ابتدعوها.

وكانت الاقلام العربية فيما مضى تُعَدّ بالعشرات . غير ان ما يُستعمل منها اليوم قليل ، نقتصر على ذكر اشهرها .

لنبدأ بالقلم المعروف بالفارسي ، نسبة الى بلاد

راس الحكمة مخافة الله

توكل على الله يكفيك

لا يخلو المرء من ودود يمدح

وعدو يقدح من كظم

غيظه فقد حلم من حلم فقد صبر

من صبر فقد ظفر دولة

الملوك في العدل

القلم الفارسي

فارس اي ايران . فعندما فتح العرب هذه البلاد

وجدوا هناك حضارة عريقة وكتابة وطنية قديمة تُدعى بالبهلوية . فتعذر على الحروف العربية ان تحلّ محلها في اول الامر . ولكنها ، مع مرور الايام ، تغلبت عليها ، وفي الوقت نفسه تأثرت بها وأخذت عنها . ولما كان الفرس من الامم التي اشتهرت بالفنون الجميلة كان الخط الفارسي من أجمل الخطوط العربية ، وكان العرب في اول الامر لا يكتبون به الا كتب الادب والشعر .

ومن اشهر الاقلام قلم الرقعة او الرقاع . وهو من اسهل الخطوط واكثرها شيوعاً في المدارس . وتستعمله الخاصة والعامة على السواء . وهو القلم الذي كانت السلطنة العثمانية تعتمد عليه في دواوينها ، وما زال حتى يومنا هذا يعتمد عليه اليوم في خط الدواوين في الدول العربية كافة . واليك نموذجاً من هذا القلم .

من الواجب على الطالب المحسن تمام ذهابه وإيابه أن يشتغل على الكتب برضى خاطر معلميه ووالديه

ويجب أن يجهد نفسه كي لا يغضب ربه بارتكاب معصية ما تلحق به نقمته تعالى ،

ويجب أن يضيف إلى ما ذكر لطافة المعاشرة ورقة الطباع ولين العريكة مع رفاقه المدرسة

ولا يكون على حالة يخشى بأن لا يحفظ عرضه ويستهزأ بآدابه وكمالاته فيندم بسبب ما

ويجب أيضاً أن لا يفرط لتنفيذ رغائبه حتى بعد زوال هذه العبارة يتقدمون في تحصيل

العلوم

قلم الرقعة

ومن الاقلام ايضاً قلم الثلث . وهو يُكتب عادةً بالحجم الكبير ويُستعمل لكتابة اللافتات واسماء الكتب وعناوين ابوابها وفصولها وما شاكل . واليك مثالاً منه .

أدب السلوك

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى ... وحظك موفور وعرضك صيّن

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ... فكلك عورات وللناس ألسن

وعيناك إن أبدت إليك معايباً ... فصنها وقل يا عين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... وفارق ولكن بالتي هي أحسن

قلم الثلث من خط الشيخ نسيب مكارم

وثَمّت القلم المعروف بالقلم الديواني الهمايوني . وهو خاصّ بدواوين الملوك والسلاطين . وتكتب به عادة البراءات والمعاهدات والشهادات بتقليد المناصب الرفيعة وما اشبه .

الخط الديواني الهمايوني

بقي علينا قلم واحد هو القلم المغربي . وقد سمي بهذا الاسم لان اهل المغرب الاقصى لا يكتبون

الا به . وبمجرد النظر الى مؤلفاتهم ورسائلهم الخاصة والعامة
تريك انهم يعتمدون عليه دون غيره . وهذه صورة منه :

حكاية

قيل إن شاعرا كان له عدو فبينما هو سائر
ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدوه فعلم
الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة فقال له يا هذا
أنا أعلم أن المنية قد حضرت ولاكن سألتك الله
إذا أنت قتلتني امض إلى داري وقف بالباب وقل
ألا أيها البنتان إن أباكما ؛ فقال سمعا وطاعة
ثم إنه قتله فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف
بالباب وقال : ألا أيها البنتان إن أباكما ؛ وكان
للشاعر ابنتان فلما سمعتا الكلمة منه أجابتاه بفم
واحد : قتيل خذا بالثار ممن أتاكما ؛ ثم تعلقتا
بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره فأقر
له بقتله فقتله والله أعلم

انتهت
الحكاية

الخط المغربي

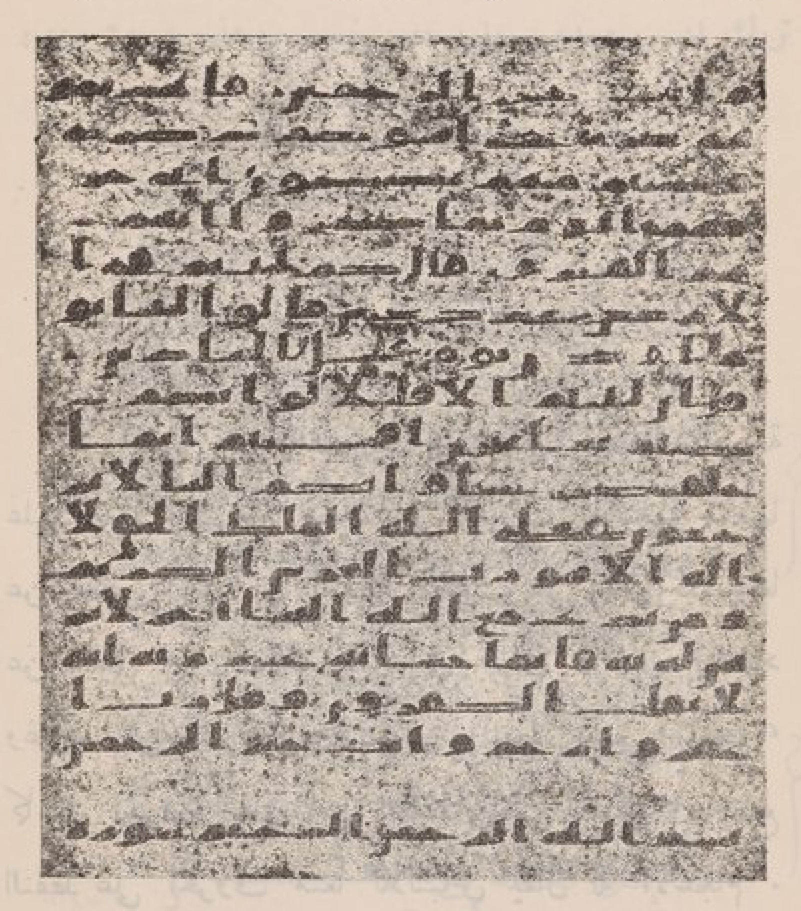
الفصل التاسع

الاعجام والشكل

لا يخفى على القارئ، ان اكثر حروفنا العربية عليها نُقَط، الغرض منها تمييز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض . اي ان النقطة وُضعت على الذال لتمييزها عن الدال ، وكذلك يقال في الزاي والشين والضاد وغيرها من الحروف . والحرف المنقّط يُسمَّى المعجم، كما ان الحرف الخالي من النقط يُسمَّى المُهمَل . ووضع النقط على الحروف منعاً للالتباس يقال له الاعجام .

وغني عن البيان أيضاً أن الحركات في اللغة العربية توضع فوق الحروف او تحتها . فلا تُعتبر جزءاً

من الالفباء ، كما هي الحال في اكثر لغات العالم .



صفحة من القرآن الكريم خالية من التشكيل
وقد كتب في القرن الثاني للهجرة

والكلمة المضبوطة بالحركات يقال لها مشكولة او

مُشكَلة . وضبط الكلمة بالحركات نسميه شكلًا او تشكيلًا .

ومن الغريب ان العرب كانوا فيما مضى لا يعرفون الاعجام والتشكيل . فكانوا يقرأون بدونهما ، مستعينين بسياق الكلام وقرائنه .

وكان ذلك مدعاة الى اللبس والاشكال . ومع مرور الاجيال ، بدأ الخطأ واللحن يتطرقان الى اللغة العربية ، والقرآن الكريم ، فخشي العرب ذلك ، وأخذوا يفكرون في افضل الوسائل لتلافي الخطأ واللحن .

ومما يدلنا على خوفهم من هذا الامر الجلل بعض الحكايات التي وردت في كتب الادب والتاريخ . من ذلك ان عالماً لغوياً كبيراً اسمه ابو الاسوَد الدُؤَليّ كان له بنتٌ . نظرت الى السماء في ليلة صافية وقالت لابيها : « ما احسنُ السماء يا ابي » (بضم النون) . فقال « نجومُها » قالت : « اردت التعجب » .

فقال « كان عليك ان تقولي : ما احسنَ السماء (بفتح النون) وتفتحي فاكِ » .

ويروى ان احد ولاة البصرة طلب من هذا العالم ان يضع طريقة لاصلاح الالسنة عند القراءة ، فلم يجبه الى طلبه . فدبّر الوالي حيلةً . فقال لرجل من اتباعه « اقعد في طريق ابي الاسود واقرأ شيئاً من القرآن وتعمَّد اللحن » ففعل الرجل ذلك ، وسمعه ابو الاسود يقرأ « ان الله بريءٌ من المشركين ورسولِه » وكسر اللام بدلًا من ان يضمها . فاعظم العالم ذلك وقال « عزَّ وجه الله تعالى ان يبرأ من رسوله » فذهب الى الوالي من فوره ، وقال « قد اجبتك الى ما سألت ، ورأيت ان ابدأ باعراب القرآن » .

وكان السريان يستعملون الشكل والاعجام في لغتهم ، فاخذ العرب عنهم وقلّدوا علاماتهم تقليداً في اول الامر . ثم انهم ، مع مرور السنين ، عدّلوا

هذه العلامات وزادوا عليها .

لقد وُضع الاعجام في اللغة العربية قبل الاسلام على ما يرجّح . ومما لا ريب فيه أنه كان معروفاً عند العرب في القرن الاول للهجرة ، بدليل ان كتابات هذا القرن كان بعض حروفها منقطة . ثم ان الاعجام ازداد دقةً واتقاناً مع مرور الاجيال .

وكان ترتيب الالفباء العربية على غرار الحروف القديمة التي اخذت عنها . اي وفق ترتيب الابجدية . فصارت ترتب بعد الاعجام على الترتيب الهجائي الحديث ، اذ جمعت الحروف المتشابهة بعضها الى بعض كما هو معروف .

اما الشكل العربي فكان في قديم الزمان غيره في هذه الايام . اذ كان يُعبَّر عن الفتحة بنقطة فوق الحرف ، وعن الضمة بنقطة في وسطه ، وعن الكسرة بنقطة تحته . وكانوا اذا ارادوا التعبير عن

التنوين ضاعفوا هذه النقط .

ولكي يميّزوا هـذه العلامات عن نقط الاعجام كانوا يكتبونها بمداد مخالف في اللون لمداد الكتابة كاللون الاحمر او الاصفر او الاخضر . وقد جرى اهل الاندلس على استعمال اربعة الوان في المصاحف : السواد للحروف ، والحمرة للشكل بطريقة النقط ، والصفرة لهمزات القطع ، والخضرة لهمزات الوصل .

ويُروى أن اول من شكّل القرآن الكريم هو ابو الاسود الدؤلي الذي اختار لذلك كاتباً خبيراً وقال له « خُذ المصحف وصبغاً يُخالف لون المداد . فاذا رأيتني فتحتُ شفتيّ بالحرف فأنقُط واحدةً فوقه ، واذا كسرتها فانقط واحدةً اسفله ، واذا ضممتُها فاجعل النقطة بين يدي الحرف . فاذا تبِعتْ شيئاً من هذه الحركات غنّة فانقط نقطتين » . واخذ يقرأ القرآن بالتأني ، والكاتب يضع النقط . وكلما اتمّ

الكاتب صحيفة اعاد ابو الاسود نظره عليها ، واستمرّ على ذلك حتى اعرب المصحف كله .



صفحة من القرآن الكريم كتبت في القرن الثالث للهجرة
وهي مشكولة بالنقط الحمراء

وظل الكتاب يعبّرون عن الحركات بالنقط الملونة زماناً طويلاً . لكنهم لم يكونوا راضين عن هذه

الطريقة كل الرضا . لان المداد الملون لم يكن يتيسَّر لهم في كل حين . واذا هم كتبوا الشكل بالمداد العادي اختلط بالاعجام .

وفي اواسط القرن الثاني للهجرة توصلوا الى التعبير عن الحركات بالطريقة التي نسير عليها اليوم ، فصار باستطاعة الكاتب ان يجمع بين الكتابة والاعجام والشكل بلون واحد من المداد ، واصبحت العلاقة ظاهرة بين الحركات ومدلولاتها . فالضمة هي الواو بعينها مصغَّرة ، والفتحة الالف مميَّلة ، والكسرة الياء مبتورة . اما التنوين فقد عبَّروا عنه بتضعيف هذه العلامات الجديدة وجوَّزوا لتنوين الضم ان يُكتب على الاصل هكذا ٗ او أن تُردَّ الضمة الثانية على الاولى هكذا ٌ .

الخاتمة

لقد انتهت قصة الكتابة ـ هذا الاختراع الخطير الذي يفوق معظم الاختراعات أثراً في مجرى الحضارة والعمران .

ونحن الذين تعوّدنا الكتابة منـذ الصغر يصعب علينا ان ندرك اهميتها في حياتنا اليوميـة ، وان نتصور ما يكون من امر المجتمع الانساني لو فقد فجأةً هذا الفن الثمين ، وفقد كل ما لديه من كتب وجرائد ومجلات ، فاصبح التخاطب الشفهي الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين الناس .

ولا ريب في ان هذا الاختراع هو من اعظم ما استنبطه عقل الانسان . بل هو جسر من الجسور

الكبرى التي مرت عليها البشرية من الوحشية الى المدنية . لانه مهّد للانسان سبيل التعلُّم ويسَّر له الاحتفاظ بالتراث الاجتماعي ونقله من جيل الى جيل ليتسنىٰ لكل جيل ان يبدأ بنهج طريق التقدم حيث انتهت الاجيال السابقة . فالامة التي لا تتعلم القراءة والكتابة ولا يكون لديها من الآثار المدوّنة ما يستفيد به الخلف من السلف لا تستطيع ان تجاري الامم الراقية في معارج الحضارة والعمران .

ولا تقتصر فائدة الكتابة على ربط الازمنة القديمة بالحديثة وانما تربط الامكنة المتباعدة بعضها ببعض . فيستفيد القارىء مما كتب في الازمنة القديمة كما يستفيد مما كتب في الامكنة البعيدة .

ونحن اذا القينا نظرة اجمالية على تاريخ الكتابة منذ اقدم الازمان الى يومنا هذا نرى كيف تدرّجت في سلّم النشوء والارتقاء ، وكيف بذل اسلافنا في

سبيل ذلك جهداً عظيماً . وفضلاً عن ذلك كله نرى ان هـذا الفن العجيب ـ على ما بلغه من الجودة والاتقان ـ لا يزال بعيداً عن حدّ الكمال ، وأن في وسعنا ان نساهم في تنشئته وترقيته .

فلنستلهم اسلافنا الهمة والنشاط لنفعل مثلما فعلوا .

[illegible] الاجيال السابقة . فالامة التي لا تتعلم القراءة والكتابة ولا يكون لديها من الآثار المدونة ما يستفيد به الخلف من السلف لا تستطيع ان تجاري الامم الراقية في مدارج الحضارة والعمران .

ولا تقتصر فائدة الكتابة على ربط الأزمنة القديمة بالحديثة وانما تربط الامكنة المتباعدة بعضها ببعض . فيستفيد القارىء مما كتب في الأزمنة القديمة كما يستفيد مما كتب في الامكنة البعيدة .

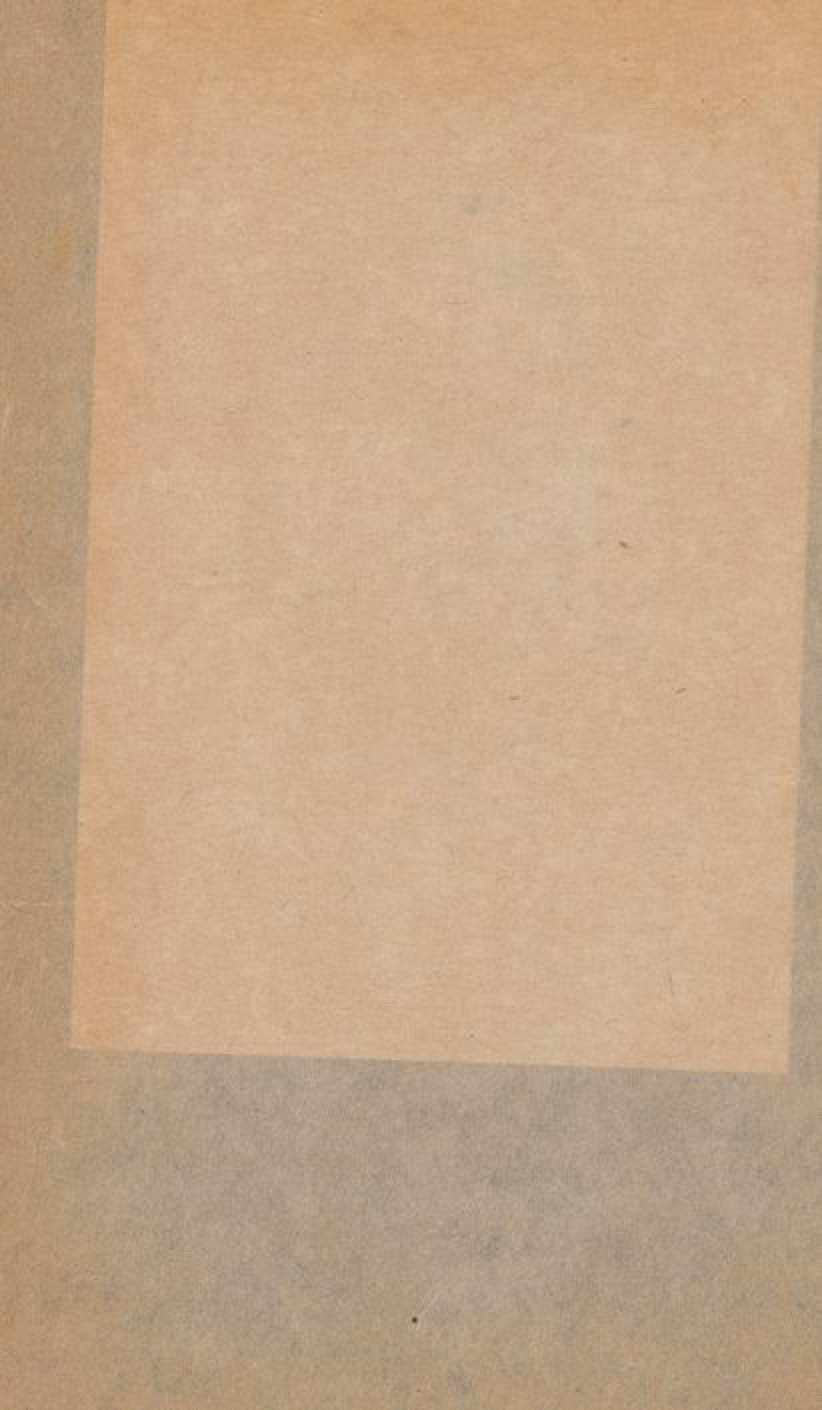
ونحن اذا القينا نظرة اجمالية على تاريخ الكتابة منذ اقدم الازمان الى عصرنا هذا نرى كيف تدرجت في سلم النشوء والارتقاء ، وكيف يدل اسلافنا في

تحت الطبع



وهي الحلقة الثانية من سلسلة امس واليوم

يبحث هـــذا الكتاب تقدم التفكير الرياضي خلال العصور . فيسرد قصة تطور الارقام منذ اقدم الازمان الى الوقت الحاضر، ويتتبع اسفارها الطويلة من بلاد الشرق الى بلاد الغرب . ويهتم بشكل خاص ، باظهار الدور العظيم الذي قام به العرب في هذا الحقل . وفيه من الطرائف والمعلومات ما يجدر بكل مثقف الاطلاع عليها .



الذي قام به العرب في هذا الحقل . وفيه من النظرات
والمعلومات ما يجدر بكل مثقف الاطلاع عليها .


AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

